مصطفى محمود

الله

الطبعة التاسعة

دار المعارف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج . م . ع .

الله فى الإسلام

الشمس تأفل .

والزهور تذبل .

والربيع ينتهى إلى خريف .

والصحة تنتهى إلى مرض .

والحياة تنتهى إلى موت .

والإمبراطوريات تزدهر وتندثر .

والقارات يبتلعها المحيط .

والنجوم تنفجر فى فضاء الكون وتختفى .

وعالم الظواهر حولنا عالم خادع مخادع يتلون كالأكاذيب ويتحرك إلى زوال وفناء . . وكأنه رسوم على الماء أو نقش على رمال تذروها الرياح .

والله ليس من هذا العالم . . وإنما « متعال » عليه . . لا يمكن لله أن يمرض أو يشيخ أو يموت ، ولا يصح أن نتصوره وهماً باطلا مثل سائر الأشياء . . فهو « متعال » على ذلك كله .

العالم باطل

والله حق

العالم زائل

والله دائم

العالم متغير

والله ثابت

العالم سجين فى حدود الزمان والمكان .

والله متعال على الزمان والمكان . . لا يتحيز فى مكان فليس له حجم ولا مواصفات مكانية . . ولا يمكن أن يقال إنه فوق أو تحت أو عن يمين أو شمال . . أو داخل أو خارج .

وهو لهذا لا يحل فى بدن ولا يتحيز فى حيز ولا يتجسد فى صورة أو شكل .

ولأنه متعال على الزمان فإنه ليس له عمر وليس له بداية أو نهاية وليس له ماضى وحاضر ومستقبل . . وإنما هو حضور مطلق . . وآن مستمر . . وديمومة أبدية . . ماثلة فى الغيب والشهادة على الدوام .

ولا يصح أن نقول عنه إنه ينمو أو يتطور أو يكبر أو يتضخم أو يزداد فى القوة أو يتكامل . . لأنه الكامل أبدا .

ولأنه منزه عن الزمان والمكان . . فهو لا يتحرك ولا ينتقل . . وإنما هو ساكن سكوناً مطلقاً . . صامد . . وكل ما حوله يضطرب . . وهذا معنى « الصمد » أى الصامد الثابت ثباتاً مطلقاً . . ولهذا فهو الملجأ والأمان من خضم الاضطراب ، تلقى النفوس إليه مراسيها كما ترسو السفن وتلقى بمراسيها إلى القاع الساكن وتستمد ثباتها من ثباته . . فهو الصمد الذى يصمد إليه .

نحن فى القيد (فى الزمان والمكان) .
والله فى الاطلاق (الأزل والأبد) ليس له مبتدأ ولا منتهى ولا حدود .
وهو « اللطيف » منتهى اللطف ليس له جسم ولا مادة ولا كتلة ولا ثقل .
وهذا هو معنى « اللطف » أى الخفاء المطلق .
« اللطيف » هو الذى ليس له جسم أو ثقل أو كثافة تعوقه . .
ومن ثم فهو يتخلل كل شيء فى حضور كامل مع كل شيء فى كل وقت فى خفاء واستسرار : لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار . . وهو معنا أينما كنا قريباً منا منتهى القرب بحيث لا نراه . . كما لا يرى الواحد منا سواد عينيه فهو أقرب إلينا من حبل الوريد (من الدم فى أجسادنا) .

وهو « واحد »
هو الذى ينفعك
وهو ذاته الذى يضرك
وهو الذى يضع السم فى العقرب
وهو نفسه الذى يضع العطر فى الزهرة
هـــو ذات الفاعل « الواحـــد » الذى يفعل كل هذه الأشياء .
هو « الواحد »
وهو « الأحد »
والأحد غير الواحد فى المعنى .
الواحد نفهم منه وحدة الفاعل رغم تعدد الأفعال وتنوعها . . فاعلها دائماً واحد .

والأحدية هى صفة هذا الواحد .

فهو أحد .

أى لا ينقسم ولا يتجزأ ولا يمكن أن يكون له بعض أو جزء أو ضد أو ند . . ولا يجوز عليه التعدد أو التناقص أو الازدياد .

وهو لا ينحل ولا يتركب ولا ينفرط ولا يتحد ولا يتصل ولا ينفصل .

وهو أحد فى ذاته بمعنى أنه لا ينشق على نفسه ولا يتناقض ولا يتصارع . . وإنما تلتقى فيه الأضداد (الجبار الرحيم والمعز المذل والنافع الضار) فى وحدة مطلقة لا تضاد فيها . . ولا تناقض . . ولا تصارع . . ومن هنا كان اسمه « السلام » و« الصمد » الساكن سكوناً مطلقاً لا اضطراب فيه رغم احتوائه على الأضداد لا حرب فى داخله رغم احتوائه على النقائض . . فهو « السلام » .

وهو « الحى » .

أى الحى بذاته بدون حاجة إلى خالق يمنحه الحياة . . فهو الحى مطلق الحياة دون اعتماد على غيره . . بعكس حياتنا الناقصة التى لا تقوم إلا بمدد منه .

وهو القيوم الذى يقيم كل شىء حيًّا ويمنح الحياة للعدم .

وكل شىء يقوم بالله .

النجوم فى أفلاكها تمسكها قوانين الله فهى تقوم به، والأشجار ترفع قامتها به وبمدده من النور والشمس والرى والتربة .

ونحن نقوم كل يوم به وبمدده .

ونحن نرى به ونسمع به . . بالمواهب التى بثها فينا . . والكون كله يدين بقيوميته لله . . فهو قيوم كل شىء .

وهو مقيمنا من الموت يوم القيامة .

وهو قائم بعنايته على كل شىء فى الدنيا من الذرة إلى الفلك فهو « القيوم » .

وهو « السميع » مطلق السمع بدون إذن وبدون أدوات . . هو السميع بذاته .

وهو « البصير » بدون بصر وبدون عين وبدون أعصاب بصرية . . هو البصير بذاته .

وهو « المتكلم » بدون حروف وبدون كلمات وبدون لسان وبدون شفتين . . هـو المتكلم بذاته يلقى إلينـا بالمعانى فنسمعها على أية لغة يشاء .

وهو « الأول » قبـل الزمان وقبل خلق العالم حينما كان ولا شىء معه .

وهو « الآخر » بعد أن ينتهى الزمان وينتهى العالم ويعود كل شىء إليه . . فهو « الباقى » بعد أن يفنى الكل . . فلا شىء قبله ولا شىء بعـــده .

وهو « الظاهر » بأفعاله .

« والباطن » بذاته .

وهو « المنتقم » لنا لا لنفسه .

وهو « الجبار » على الجبارين « المذل » للمذلين « المتكبر » على

المتكبرين الماكر بالماكرين ومن كانت هـــذه صفاته كان حقيقاً بالكبرياء والعظمة .

لا تجوز الكبرياء إلا له .

له الكبرياء فى السموات والأرض .

يقول الله فى حديث قدسى :

« الكبرياء ردائى والعظمة إزارى من نازعنى فيهما قصمته » .

فهو « العظيم » بحق إذ اكتملت له أسباب العظمة .

ومع ذلك فهو المتحبب دائماً إلى أحبابه يغدق عليهم من حبه وكرمه ونعمه وحنانه فهو « الحنان المنان » .

عذابه من عيون رحمته . . فهو « الرحمن » الذى يعذب ليوقظ وينبه ويعلم . . وهو « الرحيم » الذى يمنح رحمته خالصة إذا شاء . . ورحمته دائماً سابقة على غضبه . . يرسل الرسل والنذر والكتب ويجلو آياته بينات فى السموات والأرض لكل ناظر . . ثم بعد ذلك يكون الحساب . . يكون يوم الدين . . يوم الغضب على من يستحق الغضب . . فهو « الصبور » الذى يمهل . . ويمنح الفرص . . ويمد الأجل . . وهو « التواب الغفار لكل أواب رجاع إليه » .

وهو « الواسع » .

واسع العلم .

واسع المغفرة .

واسع الرحمة .

هو اللانهاية والإطلاق فى كل شىء .

يقول له ملائكته ·

« رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْماً فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ » .

وما ينطقون إلا بوحيه وأمره وكلامه . . فهو نبع الرحمة والحنان والملهم بالمغفرة والتوبة .

سبحانه « ذو الجلال والإكرام » .

تعجز الحروف والكلمات وتنقطع العبارات عن بلوغ مقامه الأسمى حيث هو .

حيث لا حيث .

وعند لا عند .

وحيث تبهت العقول .

وتسكت الألسن .

وتجف الأقلام .

وترفع الصحف .

حركة الزمن والتاريخ لا تجرى فى خط مستقيم . وإنما فى دوائر .

التاريخ يعيد نفسه فى دورات . . واليوم يعيد نفسه فى أوقات متتالية من الليل والنهار والليل والنهار والفصول تتعاقب من شتاء إلى صيف إلى شتاء إلى صيف لتعاودنا بنفس الطقس ونفس المحاصيل ونفس الأمراض الموسمية فى دورات مكررة من البدء والإعادة .

والإنسان الذى يتقلب هو الآخر من نوم إلى يقظة إلى نوم إلى يقظة يشعر أنه هو الآخر يدور . . يبدأ لينتهى ثم ينتهى ليبدأ ثم يعود فينتهى ليبدأ .

هذه الحقيقة هى التى فتحت ذهنه على النتيجة البديهية . . أنه سوف يموت ليولد . . . وأن الموت ليس إلا انسلاخا عن البدن أشبه بما يشاهد حوله من انسلاخ الأفاعى من إهابها والحشرات من جلدها فى دورات متتاليه تتجدد بها مرة بعد مرة .

إنها طابع الخليقة .

ونفهم الآن من القرآن أنها صفة الخالق أيضاً .

ونقرأ أن من أسمائه الحسنى أنه « المبدئ والمعيد » .

والمعنى الأول الذى يرد على الذهن أنه خالق الأولى والآخرة وأنه

سوف يبعثنا بعد الموت . . . وأن لنا عودة .

والمعنى الثانى المكمل للأول . . أن هذا ناموس الخالق فى خليقته وأن كل شيء فى مملكته يجرى على سنن ثابتة من البدء والإعادة ويتحرك فى دورات .

وكل معنى منهما يؤكد الآخر . . فما نراه حولنا من دورات البدء والإعادة يؤكد لنا أن الموت لن يكون خاتمة وإنما نهاية فصل ما يلبث أن يليه فصل آخر وأنه كالنوم له ساعة ننفضه فيها ونتيقظ .

وبالمثل الكلام عن البعث نرى له مصداقاً كل يوم فى بعث الخضرة والازدهار كل ربيع بعد موات الخريف .

هو « المبدئ والمعيد » .

هو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه .

والإعادة دائماً أهون من الابتداء المطلق .

« هو المحيي والمميت » .

« فالق الحب والنوى » .

الحبة تنفلق لتخرج النبتة الجديدة .

والنواة تنفلق لتنبت منها الشجرة .

ونواة الخلية تنفلق مع كل دورة من دورات التكاثر لتصبح الخلية الواحدة خليتين .

ونواة الذرة تنفلق لتولد منها ذرات جديدة وتخرج طاقة هائلة .

الانفلاق دائما بداية الدورة وبداية الميلاد .

الفتق دائماً يأتى بعد الرتق .

« أَوَ لَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَٱلأَرْضَ كَانَتَا رَتْقاً فَفَتَقْنَاهُمَا » .
(الأنبياء – ٣٠)

أى كانتا نسيجاً واحداً (السديم الغازى) ثم تفتق هذا النسيج الواحد إلى أنوية كثيفة نشأت منها الشمس والأرض والكواكب بأجوائها .

هذه سنته وناموسه فى خلقه .

وهو « المبدئ والمعيد » .

وهو « المقدم والمؤخر » .

هو الذى يؤقت المواعيد لكل شيء .

وهو الذى يؤخر الآجال إلى يومها المقسوم .

وهو خالق الزمن بإطلاقه .

وهو الذى أقام الأسباب لتكون مؤدية إلى النتائج وجعل الأسباب مقدمة على نتائجها . والنتائج مؤخرة تلو أسبابها .

وجعل الدواء سبباً للشفاء .

ولأنه هو مسبب الأسباب كان هو « الشافى المعافى » وليس الدواء ، لأنه هو الإرادة المطلقة وراء الأسباب . . . ولو كان الشفاء إرادته فسوف يجريه على صاحبه بالدواء أو بالجراحة أو بأى سبيل .

وإذا لم يكن الشفاء فى تقديره . . . فلن ينفع طب ولا دواء . . لأنه هو الحق والظواهر جميعها وسائله الوهمية .

لكننا جميعاً مندوبون إلى التماس تلك الأسباب لأن هذه سنته التى أجراها على الأرض .

جعل الاجتهاد والعزم سبباً للنجاح . فلا مفر لطالب النجاح

من أن يلتمسه بالجد والاجتهاد وشحذ العزائم .

ولا يجدى أن نقول إن النجاح مقدور من البداية فلماذا نسهر ونكد . . فهذا فهم خاطئ للقدر . . لأن ناموس الله هو عين قدره . . وفى الناموس الإلهى الذى أجراه علينا أن العزم سبب ومقتضى للنجاح بالضرورة .

ثم من أدراك بأن النجاح مكتوب لك أو أن الفشل مكتوب لك . . هذا علم بالغيب لا يستطيع أحد أن يدعيه . . ومن ثم لا يصح أن نرتب عليه نتائج وهمية .

وهو « الرقيب » . . « الشهيد » مطلق الشهادة يعلم السر وأخفى . . ويعلم ذات الصدور . . ويرى « خائنة الأعين » . . ولا يغيب عنه شىء لأنه السميع مطلق السمع والبصير مطلق البصر والعليم مطلق العلم .

وفى علم الله لا مكان للشك . . ولذا كان من أسمائه أنه « المؤمن » لأن كل مدركاته يقين وإيمان . . وهو أيضاً مناط الأمن والأمان .

وهو « الوكيل » لأن لا شىء يتم إلا بإذنه . ولأن الأمور كلها موكولة إليه . هو الذى ينفذها ويحققها

وهو « المهيمن » لأن لا إرادة فوق إرادته ولا إرادة معه . . ولا راد لقضائه ولا معقب لأمره .

وهو « الصبور على عباده يرزقهم ويمد لهم فى الحياة وهم ينكرونه ويجحدونه . . وهو يؤجل كل شىء لوقته بلا عجلة ويقدم ما هو واجب التقديم ويؤخر ما هو واجب التأخير فى حكمة بالغة وصبر كريم .

وهو « الشكور » يجازى الحسنات بعشرة أمثالها مع أنه هو الذى ألهم عباده بتلك الحسنات وهذا غاية الفضل والتفضل . . سبحانه لا حدود لكرمه ولا نهاية لمحبته لا يستطيع الواحد منا أن يكون شكوراً لله لأنه لا يستطيع أن يحصى عليه نعمه ولا أن يحيط بأفعاله .

يقول النبي فى دعائه :

« سبحانك لا أحصى ثناء عليك . . أنت كما أثنيت على نفسك » . . إذ لا يثنى على الله على وجه الإحاطة إلا الله . . فلا يعرف الله إلا الله . . فشكرنا شكر عجز . . أما شكر الله فهو شكر علم وإحاطة وخبرة وقدرة .

والله هو « الملك » المطلق على جميع الأكوان المستغنى فى ذاته وصفاته عن كل موجود . . بينما الكل فى حاجة إليه من الذرة إلى المجرة فهو الذى يمسك كل شىء بقوانينه ويدبر كل شىء بحكمته . .

والإنسان ملك صغير . . . جنوده شهوته وغضبه وهواه ، ورعيته لسانه وعيناه ويداه إذا ملكها ولم تملكه وإطاعته ولم يطعها . نال درجة الملك فى عالمه الصغير (جسده) فإذا اتسع ملكه استطاع أن يستغنى عن الناس كلهم بينما احتاجوا هم إليه . . . وأصبح الملك فى العالم الأرضى . وتلك رتبة الأنبياء . . كما يقول الإمام الغزالى .

ولكنه أبداً مفتقر إلى الله لا يخطو ولا يتنفس ولا يحيا إلا بمدد من الله .

يقول الأمير للفقير العارف بالله :

– سلنى حاجتك .

فيقول الفقير :

– أسألك ولى عبدان هما سيداك غلبتهما وغلباك وملكتهما وملكاك .

فيسأل الأمير :

– ومن يكونا ؟

فيقول العارف بالله :

– هما الحرص والهوى .

والله هو « القدوس » المنزه المبرأ من كل وصف نتصوره بخيالنا أو يسبق إليه وهمنا . . وهو ليس فقط منزهاً عن صفات نقصنا بل هو منزه أيضاً عن صفات كمالنا لأن كل ما يخطر لنا من صفات كمالنا هو نقص بالنسبة إلى ذاته . . والكلام عن « القدوس » بأنه المبرأ من العيب هو كلام قريب من سوء الأدب . . والحق أن نقول إنه المبرأ عن جميع ما يخطر لنا من صفات بما فيها صفات كمالنا

والتقرب إلى الله بهذا الاسم يكون بأن تتجرد النفس من جميع حظوظها فلا تسعى إلى شهوة ولا تنقاد لغضب ولا تجرى وراء مال ولا تذل لمتاع أو طعام أو ملبس أو ملمس أو منظر . . ولو عرضت لها الجنة ونعيمها لانصرفت عنها مشتاقة إلى خالقها . . لا يقنعها من الدار إلا رب الدار . . وبقدر عظم المطلب تكون عظمة النفس .

ومن كان همه ما يدخل فى بطنه كانت قيمته ما يخرج منه كما يقول إمامنا الغزالى .

والله هو « الحكم » الذى أحكم كل شىء صنعا وقدر كل شىء تقديراً فى الأزل وأقام القوانين والأسباب الثابتة المستقرة والنواميس التى

تجرى الأكوان المادية على سننها .

كما تقوم العمارة فى البدء على شكل تصميم ومشروع وصورة ذهنية فى عقل المهندس . . . كذلك كل ما يجرى فى الدنيا سبق به العلم فى الأزل . . . وعمارة الكون بنيت على مقتضى الإرادة والحكمة الإلهية . . هو الذى أحكم كل شيء خلقاً ثم هدى .

وكل ما يدخل فى الوجود يدخل من باب الوجوب . . فهو واجب الحدوث بالقضاء الأزلى الذى لا مرد له . . فلا جدوى من الهم وعلى العبد أن يسعى إلى رزقه مطمئن النفس هادئ البال . . وليس معنى هذا أن يتكاسل ويتواكل اعتماداً على ما هو مكتوب . . فالله بين لنا أنه لا يقضى بالنجاح إلا بأسبابه .

وفى حديث نبينا عليه الصلاة والسلام :

– « اعملوا فكل ميسر لما خلق له » .

لا نجاح بلا عمل .

هذا عين الدستور الإلهى .

والله يقبض الحظوظ أو يبسطها حسب استحقاق كل عامل وهذا هو التيسير والتعسير .

فهو « القابض الباسط » .

الذى يقبض الأرواح والحظوظ والقلوب .

ويبسط أسباب التوفيق .

كل ذلك يجرى فى إطار من الحكمة العالية .

فهو « الحكيم » الذى يحقق أفضل الأشياء بأفضل الوسائل .

أنا وأنت وكل ركاب هذه السفينة الفضائية التى اسمها الأرض . . .

نعلم أنها تمخر عباب هذا الفضاء منذ ملايين السنين فى صحبة كوكبة من الفرسان من أبناء أسرة الشمس . . والشمس بدورها مع مائة ألف مليون شمس أخرى تؤلف مدينة سابحة اسمها المجرة . . ومثلها من المجرات مائة ألف مليون مجرة تسبح فى طول الكون وعرضه على مدى اللانهاية من الرؤية .

نظرة فى السماء فى منتصف ليل ساج إلى هذه العمارة الكونية الهائلة سوف تثير الذهول .

إلى أين نسير

وما النهاية .

ومن الذى خلق

وكيف

ولِمَ

العلم يقول لنا إن هذه العمارة الهائلة على سعتها وتراميها مبنية كلها من نسيج واحد وخامة واحدة ومصممة كلها بأسلوب واحد وخطة واحدة ومحكومة بقوانين واحدة .

سوف يقول لنـــا العقل .. لا بد أن الخالق واحـــد والمبـــدع واحـــد .

فإذا أدرنا البصر عائدين إلى الأرض وأحوالها ورحنا نتأمل ما فيها من حياة ونبات وحيوان وإنسان .. وجدنا نفس الشيء .. نفس القوانين الواحدة والخامة الواحدة والنسيج الواحد والأسلوب الواحد والخطة الواحدة فى الجميع .

الذى بنى السماء ... هو هو الذى صنع ورق الشجر .. وهو الذى وضع السم فى العقرب .. والعطر فى الورد .. والعقل فى الإنسان .. وهو الذى صنع الجميع من خلايا متشابهة .. كما تبنى البيوت من لبنات واحدة .

إن وحدة القوانين المعمارية تؤكد لنا وحدة الخالق الذى انفرد وحده فى بناء كل شيء لم يشرك فى العمل يداً غير يده .

هو الله .

الواحد الأحد .

الخالق بحق لا شريك له .

ولا يصح لنا أن نقول .. من خلقه ؟

لأن الخالق بحق لا يمكن أن يكون مخلوقاً .

هو الخالق من عدم بكلمة كن فيكون .

وكل المخلوقات كلماته .

وكلماته لا تنفد .

خلقنا فى البدء أرواحاً فى الملكوت .. وكان ذلك فى عالم الأمر ..

فى عالم الكلمات . . وقبل النزول إلى الأرحام .

ثم أطلقنا وأعطانا براءة الوجود فهو « البارئ » كما يعطى الملك براءة الوسام لحامله فيصبح من حقه أن يحمله .

ثم صوّر لنا قوالبنا المادية فى الأرحام . . فهو « المصور » .

وتنزلت أرواحنا إلى الدنيا بالصور التى أرادها .

وتنزلنا من عالم « الأمر » عالم الكلمات الإلهية . . إلى عالم « الخلق » حيث أصبحت كل كلمة صورة . . وحيث أصبحت إرادة الله (الروح) جسداً يسعى .

وهو « الوهاب » الذى يمنح هباته وعطاياه خالصة بلا غرض سخية بلا حدود .

بينما يهب الإنسان هباته لغرض انتظار المصلحة أو دفعاً لمذمة أو التماساً لثناء أو اجتلاباً لشرف أو اكتساباً لذكر وهو يعبد الله خوفاً من ناره أو طلباً لجنته أو فى أحسن الأحوال لوجهه الكريم وهو أعظم الحظوظ فلا يوجد حظ أو عوض أو مكافأة أعظم من النظر إلى وجه الله والقرب منه والحياة فى رفقة مَلَئِهِ الأعلى .

فالإنسان فى جميع أحواله لا يبرأ من الغرض فلا يمكن أن يكون « وهاباً » كما أن الله وهاب .

وهو لا يعطى من عنده لأنه لا يملك شيئاً . . بل هو يعطى مما استخلفه الله وورثه . . وهو يعطى لحدود .

وهذا هو الفرق بين صفاتنا وصفاته تبارك وتعالى .

فصفاتنا فى القيد .

وصفاته فى الإطلاق .

هو « الكريم » مطلق الكرم . . يعطى ما لانهاية من العطايا لما لا نهاية من المخلوقات .

إذا وعد وفى .

وإذا أعطى زاد على منتهى الرجاء .

لا يبالى كم أعطى ولمن أعطى .

لا يضيع من لاذ به والتجأ .

فهو الغنى عن الوسائل والشفعاء .

أعطانا فوق الكفاية وكلفنا دون الطاقة ، ومنحنا سعادة الأبد فى مقابل عمل قليل فى الزمن .

يقول الإمام الغزالى أن من اجتمع له ذلك طبعاً لا تكلفاً فهو الكريم المطلق الكرم وذلك هو الله تعالى فقط .

وهو « العليم » مطلق العلم . . فعلمه غير مستفاد من الأشياء وغير حادث بالاستنباط والوسائل . . وإنما هو علم كلى قديم سابق .

وهو « العلى » علو مرتبة لا علو مكان كما يعلو العقل على الشهوة . . وكما تعلو البصيرة على العقل وكما تعلو الغاية على الوسيلة . . وكما يعلو الحلم على الغضب . . لا رتبة فوق رتبته .

وحينما نقول إنه فوق العرش . . (ومعلوم أن العرش هو أكبر ما خلق من الأجسام والأجرام) فإنما نعنى بهذا أنه متعال فى رتبته عن كل ما هو جسم . . ولا نعنى أنه يجلس على العرش جلوس ملك . .

وانه فوق العرش بالمعنى المكانى . . فعلو الله علو معنى وعلو مرتبة وعلو قيادة وامتلاك وليس علواً مكانياً فهو منزه عن الزمان والمكان .

وهو « الحسيب » الكافى .

من كان له كان حَسْبُهُ .

إذا احتجت إلى الطعام والشراب والدواء والكساء فأنت لا تحتاج إلى غير الله بل تحتاج إلى الله فهو الذى وفر لك الحصول على كل هذه الأشياء بما خلق من نبات وحيوان وبما أودع من صفات علاجية فى الأعشاب والعناصر .

وكذلك حينما يلقم الرضيع ثدى أمه . . فإنما يتناول غذاءه من كف الرحمن فهو الذى خلق الثدى وأجرى فيه اللبن وأودع فى الأم المحبة والشفقة وهدى الرضيع إلى التقام حلمة الثدى .

وهو القادر القدير المقتدر ليس كمثله شىء فى قدرته .

وهذا هو الفرق بين مقام الإطلاق الذى يستوى عليه عرش الربوبية . . ومقام القيد والأغلال الذى نرسف فيه نحن مصفدين بقضبان الزمان والمكان والمادة .

ولهذا لا تصح المقارنة بين صفاتنا وصفاته .

ولا يجوز أن يقوم وجه شبه بين كرمنا وكرمه وحلمنا وحلمه ورحمتنا ورحمته وحبنا وحبه وحياتنا وحياته .

هو الله .

يعجز التصور أن يرسم له صورة .

ولا نملك أمامه إلا البهت والحيرة .

كما نرسم علامة اللانهاية فى الرياضة البحتة دون أن نستطيع أن نقيم لهــا تصــوراً ماديًّا ملموساً . . لأن أمرها فى الإطلاق والتجريد .

وكذلك الذات الإلهية هى صرافة التجريد وحينما نقول إنه النور وأن اسمه « النور » . فلا نعنى بذلك نور الشمس أو نور النهار فكل هذه أنوار مادية آفلة .

ولا نور القلب .

ولا نور البصيرة .

وإنما نور الحق المطلق .

وهو نور من حيث إنه ظاهر بنفسه مظهر لغيره . . ومن حيث إنه مُخرج الموجودات من ظلمة العدم ولا ظلام أظلم من العدم .

وهو « الحق » نستشفه من وراء الحجب المادية ومن وراء أقنعة الجسد والنفس والهوى ومن وراء زيف الظواهر الخادعة . . فهو الحق من حيث إنها كلها باطل .

ونستشرف عليه حينما يرتقى إحساسنا إلى عتبة الروح فتطل بنا الروح على بهائه . . فروحنا منه . . نفخة منه ومع ذلك لا يصح لنا أن نقول إن الله روح . . لأن الروح من مخلوقاته . . الروح القدس (جبريل) وروح آدم . . وروح السيد المسيح . . وروح كل منا . . من كلماته . . وأمره . . وخلقه . .

والله « متعال » على كل مخلوقاته .

وأى صلة بين الله ومخلوقاته هى « تنزل » . . « وتقرب » وليست اتحاداً (فهو الأحد الصمد الفرد المفرد الذى لا يتحد بشىء) .

وإنما تكون العلاقة بيننا وبينه هى البعد أو القرب . . والبعد يكون منا نحن وهو لا يكون بعداً فى المكان لكنه يكون بعدًا بالقلب بالانشغال بسواه والغفلة عنه .

ويكون القرب بالتوجه إليه والحضور معه والانشغال به .

ولكنه معنا دائماً حيثما كنا وإن غفلنا عنه وانشغلنا بغيره .

وهو فى «معية» دائمة بنا وبجميع مخلوقاته لا يحجبه عنا إلا جهلنا .

وهو مع الكل لا يشغله شأن عن شأن ولا واحد عن آخر .

وهذه «المعية» الدائمة هى مقتضى حبه وعنايته ونحن نسير فى نوره ونرى بنوره ونسمع بسمعه .

ليس لنا من وجودنا إلا العدم .

وكما لا يصح أن نتصور علاقة الله بنا اتحاداً فإنه أيضاً لا يصح أن نتصورها حلولا . فالله مبرأ عن الحلول كما هو مبرأ عن الاتحاد . . . ومثله مثل النار تعطى صفتها للماء بمجرد القرب منه ودون أن تحل فيه فيصبح الماء ساخناً حارقاً مثل النار باقترابه من النار ودونما حلول .

ومثل ذلك أيضاً صورة الشمس تلمع على سطح غدير صاف دونما أن تحل فيه .

وإنما هى حالات قرب .

ويبقى الله دائماً فى علاء مطلق وفى تنزيه وتجريد . فهو «العلى» . . . «المتعال» . . له الفردانية الكاملة المبرأة عن الحلول والاحتواء فى الزمان والمكان .

* * *

وهو « العدل » لا يتصور العدل إلا منه لأنه أحاط بكل شيء علماً . . إذا قضى بالضر على إنسان فإنه يُضَمِّن هذا الضر نفعاً وإصلاحاً وتربية .

وكل شر دنيوى يتضمن الخير فى داخله لأنه فعل رحمانى عادل .

وإذا كنا نتسخط ونتبرم ونسب الدهر ونلعن القدر كلما أصابنا بمكروه فنحن فى ذلك أشبه بالطفل يسوقه أبوه إلى مشرط الجراح ليستأصل له سرطاناً قبل أن يستشرى فلا يرى الطفل فى هذا العمل إلا جانب العدوان والمجزرة الدموية التى تجهز لها السكاكين والمشارط ، ولا يرىَ النفع الباطن فى هذا الضرر الظاهر . ويقابل العمل بزوبعة من الصراخ والاحتجاج والسب واللعن ويحكم على الأمر بأنه ظلم كله . . والأب طوال الوقت لا يحدوه إلا الرحمة . . وهو قد قضى على ابنه بهذا الضر محبة منه . ولو أنه تركه إشفاقاً عليه لكانت هذه الشفقة ضرراً أعظم وإهلاكاً ظالماً للطفل فى غير عدل .

وبالمثل لا يستطيع أن يتصور ذلك الرجل الذى فقد بصره أو فقد ساقه . . ماذا كان سيفعل ببصره أو بساقه لو لم يصبهما ما أصابهما . . ولا يستطيع أن يتنبأ بما يمكن أن يؤدى إليه فقد حاسة من حواسه إلى نبوغ فى ناحية أخرى أو ظهور لموهبة جديدة كانت خاملة وإنما هو ينظر كالطفل إلى الحادث مبتوراً من سياق الزمن ويكتفى بأن يحكم عليه حكماً مبتوراً .

ونحن نعلم الآن أن الأمراض تخلف فى الجسم حصانة وأن

الميكروبات تنبه الجسم ليفرز مواد مضادة ، وأن تداول الحر والبرد والصقيع والظروف القاســية الشاقة على الإنسان تربى فيه الجلد والتحمل .

ونحن نعلم أن الزلازل برغم ما تقتل من ألوف الأرواح فإنها تنقذ الكرة الأرضية وسكانها من الهلاك وذلك بأن تزحزح الجبل فتعيدها إلى مواقعها . . والجبال كما نعلم هى الثقالات والأوتاد التى تحفظ القشرة الأرضية من الانفجار تحت ضغط باطن الأرض المنصهر الملتهب الذى يتمدد باستمرار مؤدياً إلى ضغوط هائلة تهدد القشرة التى نعيش عليها بالنسف . . . فتأتى البراكين والزلازل بين وقت وآخر لتعيد التوازن الدقيق إلى حاله .

وفى عالم الحشرات نرى أنه كلما تكاثرت حشرة وتجاوزت معدلاتها فى التناسل ظهرت لها حشرة تأكلها لتعيد التوازن إلى أصله .

هــذا الميزان الخفى الذى يحكم الأحياء والجمادات يكشف عن « العدل الحكم » الذى أراد للكون الذى خلقه أن يكون نظــاماً لا فوضى .

« الله » هو الاسم المفرد .

وهو الاسم الطلسم الذى يشتمل فى داخله على جميع الأسماء والصفات والأفعال . .

جامع الكمالات . .

وكامل الأوصاف . .

وهو الاسم العلم على الذات الإلهية المسربلة بالغيب . .

جميع الأسماء تنسب إليه فيقال إنها أسماء الله . . ولا يصح أن نقول إنها أسماء الصمد مثلا .

ولا تصح الشهادة إلا به فنقول « لا إله إلا الله » ولا يجوز أن نقول « لا إله إلا الصبور » أو « لا إله إلا الغفار » . . فهو وحده الاسم الأعظم الجامع . .

ويجوز أن تكون لنا مشاركة فى باقى الأسماء . . فيقال عن الواحد منا إنه حليم أو كريم أو رحيم أو عظيم . .

ولكن لا يجوز لأحد أن يقول إنه الله .

ولا حظ لمخلوق فى هذا الاسم . . فهو اسم علَم على الخالق وحده وهو اسم قائم بذاته غير مشتق من شىء وغير قابل للتصريف . .

يقول القرآن « هل تعلم له سميا » .

أى هل تعلم من تسمى بالله غير الله .

كل اسم له معنى واحد .

وهذا الاسم الأعظم لا تتناهى معانيه .

وهو اسم تنزه عن الأضداد . . فليس له ضد ولا ند .

فإذا نظرنا فى حروفه وجدنا أنه يبدأ بالألف .

والالف هو استفتاح حروف المعجم .

وهو آدم الحروف .

والثمانية والعشرون حرفاً متولدة من الألف كجميع بنى آدم من آدم . . كلها متولدة من تشكيل الألف المستقيمة بثنيها لتكون ب أو ح أو ن أو ق إلخ . . .

والألف فى العدد « واحد » . . والواحد هو استفتاح لجميع الأعداد وفيه إشارة لعمود التوحيد . . ومن الواحـــد بالتجزئة نحصل على كل الأرقام .

ويقول لنا الصوفى ابن عطاء الله فى شطحاته إن الخلق بدأ بآدم وأنـه بالمثل جاء ألف القوام قائماً معتدلا منتصباً حسن القد والقامة على الاستقامة مخصوصاً بالتشريف والتكريم .

فإذا جئنا للحرف الثانى وجدنا اللام .

وهى إشارة إلى لام الملك « لله » .

« لِلهِ ما فِى ٱلسَّمٰوَاتِ والأَرضِ » .

« قُل لِّمَن مَّا فِى السَّموَاتِ والأَرضِ قُل لِلهِ » .

وهكذا يظل الاسم حافظاً لمعناه بعد حذف الحرف الأول فإذا حذفنا الحرف الثانى تبقى « له » .

« تَبَارَكَ ٱلَّذِى لَهُ مُلْكُ ٱلسَّموَاتِ والأَرضِ » .

وهى أيضاً لام ملك ثانية تدلنا على نفس المعنى فإذا حذفناها تبقى الهاء ننطقها « هو » . . حينما ننطق الاسم الكامل « الله » .

« وهو » إشارة إلى محض الغيب وهو « ذات الله » .

« وهو » . . اسم من أسماء الله يهتف به الذاكرون فيقولون :

يا هو ياهو . . يا من لا يعلم ما هو إلا هو . .

وهكذا يكشف لنا اسم « الله » عن كمال تكوينه .

فهــو اسم كامل يدل على المعنى فى جملته وفى أجزائه وفى حروفه ومهما سقط منه حرف بعد حرف يظل حافظاً لمعناه فى النهاية .

* * *

والذاكر يبدأ بذكر الله بلسانه نطقاً ومقالا .

ثم بقلبه إخلاصاً واعتقاداً . ثم بعمله طاعة وامتثالا .

فإذا اكتملت معرفته لا يعود يرى إلا الله فيصبح ذكره عياناً ويقيناً ومشاهدة . . فليس فى الدنيا سوى الله .

الوجود هو الله وأفعاله ولا غير .

وهو ينظر إلى نفسه على أنه فعل من أفعال الله وكذلك إلى الآخرين . . وبذلك يغيب عن نفسه باعتبارها ذاتاً منفصلة ولا يرى فيها إلا فعلا من أفعال الله . . وكذلك كل ما حوله . . فكل ما يأتيه فإنما يأتيه من الله وبالله وكل ما يجرى عليه فبأمر الله .

وهذه هى المعرفة عند العارف .

يقول لنا الصوفى العارف ابن عطاء الله السكندرى :

المعرفة رؤية لا علم .

وعين لا خبر .

ومشاهدة لا وصف .

وكشف لا حجاب .

وإحساس لا مجادلة .

ويقصد بذلك هذا النوع من الرؤية وهو ألا ترى فيما ترى إلا الله وأفعاله وما يجرى به قضاؤه فإذا شربت فأنت تشرب من يد الله وليس من الكوب وإذا احترقت يدك فالله هو الذى أحرقها وليست النار . . فالذى أودع فى النار خاصية الإحراق هو الله والذى أودع فى الماء خاصية الإرواء هو الله فهو الذى يسقى وهو الذى يحرق .

« وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ . وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ » .

وهو الذى إذا شاء سلب النار خاصية الإحراق فتكون برداً وسلاما كما جاء فى قصة إبراهيم .

وهذا هو التوحيد حينما يصبح ناموس حياة .

وهذه هى « لا إله إلا الله » حينما تصبح قلب المؤمن وروحه لا مجرد كلمة على لسانه .

فهو لا يرى بعينه ولكنه يرى بنور الله .

ولا يسمع بأذنه ولكنه يسمع بالله ويفهم بالله ويحيا بالله .

وإذا أعطى أحداً فليس هو الذى يعطى وإنما الله هو الذى

جعله وسيلة خـــير . . وما هو إلا كالخازن الذى يتصرف فيما لا يملك . .

وهو يعمل بهمة وإخلاص وتفان ولا يشغل نفسه بالثمرة فإذا باء بالفشل لا يحزن ، وإذا نجح غاية النجاح لا يغتر . . فكلها مقادير تجرى وفق إرادة الله .

وهو لا يكسل تواكلا ، ولا ينام انتظاراً للرزق ، لأنه يعلم أن ناموس الله وإرادته أن نعمل ، وأن الله أقام الأسباب لنلتمسها ، وجعل النجاح مرهوناً بالهمة والاجتهاد .

وهو لهذا يرى فى العمل طاعة وعبادة وامتثالاً للأمر والنـــاموس الإلهى .

وهو لا يسكت على ظلم ، ولا ينام على باطل . . لأنه يعلم أن الله جعل مصارع الظالمين على يد المظلومين . . وأنه كتب على نفسه أن يكون ناصرا لمن ينصره وينصر قانونه .

فهو فى كفاح دائم . . ولكن كفاح مختلف فى روحه ودوافعه عن كفاح الرجل الآخر الذى لا يؤمن بشىء غير نفسه ولا يرى لله وجوداً . . فهو ساكن النفس رابط الجأش مطمئن القلب ، وقد اكتفى من حصته بأن يعمل وفوض النتيجة لله وأسقط حظوظه وأغراضه من الحساب ، ووطد نفسه على القبول بالغنم أو الغرم مؤمناً بأن لله حكمته التى تغيب عن الأفهام ، وبذلك أسقط عن نفسه القلق والهم والطمع والغرض ، وأصبح عزماً خالصاً وحماساً ملتهباً لنصرة الحق بلا خوف ولا تردد ولا مطمع .

بينما الرجل الآخر الذى لا يؤمن إلا بنفسه قد حمل معه هموم تلك النفس وقلقها وأطماعها ومخاوفها إلى المعركة . . وهو فى حالة هزيمته لا يبقى له أمل يعيش من أجله . . فهو لا يرى فى العالم حكمة ولا معنى ولا غاية غير ما يكسب لنفسه فيه ، فإذا مات أمله مات معه كل شيء .

وهو أبداً فى معاناة لأنه لا يؤمن بسند إلا ذراعه وهى الذراع التى خلقت لتتعب وتمرض وتشيخ وتهرم وتنتهى إلى العجز والعطب .

وهو لهذا ينتقل من خوف إلى قلق إلى هم إلى يأس . . يسب الدهر . . ويلعن النجوم . ولا يرى فى الحياة إلا عبثاً وسخفا لا جدوى منه ، ويعيشها لحظة بلحظة ولذة بلذة لا يؤمن فيها بحكمة أو غاية أو قيمة تستحق أن يضحى من أجلها .

وهو يسخر من المؤمن المتدين ويتصور أنه حرم من الملذات التى يستمتع بها . . والحقيقة أن المحروم بحق هو نفسه .

هو الذى حرم نفسه من أثمن ما فى الحياة .

من الغاية والمعنى والحكمة .

ومن السند والمعين .

ومن الرحمة .

ومن المدد .

ومن ذات الحق سبحانه الذى به يعيش وبه يموت ، وبه يبعث .

ولهذا يصف القرآن الإيمان بأنه إحياء للنفس « أَوَمَنْ كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ » .

(الأنعام – ١٢٢)

ويصف ابن عطاء الله التوحيد بأنه « استنقاذ للنفس من العذاب الأدنى فى الحال ومن العذاب الأكبر فى عاقبة المآل » .

ويقول الله فى حديث قدسى :

« لا إله إلا الله حصنى فمن قالها دخل حصنى ومن دخل حصنى أمن عذابى » .

والموحدون هم المقصودون بالآية .

« ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ » .

(الأنعام – ٨٢)

فهم الموعودون بالأمن دنيا وآخرة

الذين أسلموا الوجه والاختيار لله .

* * *

والعارف الذاكر محب لله عاشق لكماله .

وشأنه شأن كل محب متعلق الفؤاد بمحبوبه فهو يحاول أن يتخلق بأخلاقه ، كذلك يحاول العارف أن يتخلق بأخلاق الله . . فيكون الرحيم الكريم الحليم العفو الصبور الشكور الحكيم العليم ما استطاع .

وهذا هو السلوك والطريق والسير على الصراط .

فأسماء الله هى الصراط المستقيم إليه . . إلى القرب منه . . وهى دليل السير إليه . .

والقرب من الله قرب صفات لاقرب مكان وذلك بأن نقترب بصفاتنا من صفاته .

وهو طريق لا يقدر عليه إلا مجاهد يستطيع أن يجاهد نفسه ويجالدها ليغالب صفاته المذمومة .

وهو الجهاد الذى قال عنه نبينا عليه الصلاة والسلام إنه الجهاد الأكبر . . أكبر من جهاد الحرب وجلادها . . لأن جهاد الحرب معركة عابرة . . أما هذا الجهاد فمعركة متصلة طوال العمر مع كل نبضة وخلجة نفس .

ومكافأة الفائز فى هذا الجهاد أن يرتفع بنفسه إلى مستوى الملأ الأعلى وإلى مقعد الصدق عند مليك مقتدر . . فصفات الله ترفع من يتشبه بها إلى ملكوت الله .

* * *

وقد جاء المجتهدون بأسماء لله غير التسعة والتسعين المعروفة منها :

المريـد . . المتكلم . . الفعال . . الموجود . . الشيء . . الذات . . الأزلى . . الأبدى . . الكاشف . . الفاصل . . القاضى . . الديان . .

ومنهم من جاء من القرآن بأسماء أخرى مثل :

الكافى . . المبين . . المدبر . . المولى . . الغالب . . الناصر . . النصير . . الأكرم . . الرب . . المليك . .

القريب . . العلاَّم .

ومنهم من جاء بأسماء ثنائية مثل :

قابل التوب . . غافر الذنب . . شديد العقاب . . ذى الطول . . ذى المعارج .

ومنهم من قال إن « رمضان » أحد أسماء الله .

ومنهم من تحدث عن أسماء استأثر بها الله فى علم الغيب عنده .. وقالوا إن منها « الاسم الأعظم » الذى إذا نودى به الله أجاب .

وقالوا إن هذا هو الاسم الذى نقل به آصف ابن برخيا عرش بلقيس إلى سليمان فى أقل من طرفة عين .

ومنهم من ذكر أن لله ألف اسم ..

والكلام كثير .

* * *

ومعنى الأسماء فى مجملها أنه « لا موجود بحق إلا الله » .. فهو المريد الفعال وليس فى الكون من أمر أو حدث أو قدر أو تدبير إلا هو مظهر لإرادته وأثر من آثار فعله وآية من آيات حكمته وتدبيره .

وهى الحى وكل حى لا يحيا إلا به .

وهو الوحيد الواحد الذى له أن يقول بحق .. أنا .. « أنا الذى هو أنا » ..

أما كل منا فهو صادر عنه وراجع إليه ولا يحق له أن يقول .. أنا .. فكل منا لا يملك هذه الـ أنا التى يدعيها .. إنما هى فضل ومنحة وهبة من الله .. أخذها على سبيل الاستعارة .

لا إله إلا الله .

لا فاعل بحق ولا موجود ولا دائم إلا هو ولا ضار نافع سواه .. ونحن فى تقلبنا فى الدنيا تحجبنا الغفلة عن هذه الحقيقة .. فنتصور أن السم هو الذى يقتل وأن الترياق هو الذى يحيي .. وننسى اليد الخفية من وراء الأسباب التى قطرت السم فى ناب الثعبان وجعلت

من الترياق شفاء .

ونحن نركب على السفينة ونتصور أنها تنقلنا كما نريد ونهوى . . وننسى أننا نركب على قوانين جاهزة يسرها لنا الخالق . . وأن الله هو الذى يحملنا على قوانينه وأسبابه . . وأننا كشفنا هذه القوانين بإلهامه واخترعنا وسائلنا التى ننتقل بها بوحيه وتعليمه .

وهو القائل لنوح :

« وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا » .

وهو الذى « عَلَّمَ ٱلإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ » .

وما نسميه بالظروف والبيئة وحركة التاريخ هى جملة الأسباب والقوانين والسنن التى أجراها الخالق . . تماماً كما قدر للنجوم مساراتها وأفلاكها فى الفضاء كذلك قدر للجموع البشرية قوانين حركتها فى الزمان . . وما نغير حينما نغير من أشكال المجتمع وعلاقاته إلا بالقوى التى أودعها فينا والبصيرة التى أمدنا بها . يقول القرآن عن ذى القرنين

« إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِى ٱلأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَىْءٍ سَبَباً فَأَتبَعَ سَبَباً » .

هكذا يتحدث القرآن عن انتصارات « ذى القرنين » ليقول أن كل نصر أحرزه هو تمكين من الله وإمداد له بالأسبات التى مهدت لانتصاره .

وهو كلام لا يعنى أن يقعد الإنسان عن بذل الهمة . . بل نرى إن العزم شرط لازم لجريان تلك الأسباب .

« إِنَّ ٱللهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ » .

فالله جعل العزم سبباً واجباً لتحقق أى شىء .

هى قوانين شاملة وضعها الخالق فيا وضع ليجرى على سننها الكون . . وما نرى حولنا من أشكال العالم المادى هى فى جملتها مجموع الأسباب التى أقامها الخالق لتكون حجابا على إرادته التى تعمل فى الخفاء من وراء الأسباب .

ومن وراء هذا الحجاب ذى الرقع المتعددة الألوان الذى اسمه العالم المادى ، هناك الذات الإلهية فى غيب الغيب .

والمؤمن الموحد لا يكتفى بهذا بل يرى أن نفسه . . أن ذاته هى الأخرى حجاب متعدد الرقع . . وأن ما يتنازعه من أهواء وشهوات ونزوع إلى السلطة وحب للترف وتعلق بالماديات هى حجب وأستار كثيفة ومخاضة لزجة تبعده عن الله ، عن سر السر المتعال المستخفى وراء الظواهر . . حتى عقله يسجنه فى حيثيات المنطق ، وفى أسر المقولات والنظريات . . . وهو لا يرى فى التعصب للنظريات إلا عبادة لأصنام مجردة جديدة .

وهو لهذا يرى أنه لكى يصل إلى الله لابد أن يتخطى العالم المادى ، ثم يتخطى نفسه ، ثم يتخطى حدود عقله . . فهو فى هجرة دائمة ويقظة وانتباه يخشى أن يغفل لحظة واحدة فيضرب على عينيه حجاب من تلك الحجب يبعده عن محبوبه الوحيد . . خالقه . الذى جعله قبلة أسفاره وهدف رحلته فهو هارب أبداً من فتنة المرأة ومن فتنة المال ومن فتنة السلطان ومن فتنة نفسه ومن فتنة عقله . . دعاؤه فى كل لحظة :

– اللهم خذنى إليك منى وارزقنى الفناء عنى ولا تجعلنى مفتوناً بنفسى محجوباً بحسى . .

وجماع همه أن يعلو فوق نفسه ويتجاوز ذاته ومنتهى أمله أن يضحى

بهذه النفس استشهادا فى قتال ، أو تفانيا فى رسالة تقربا ومحبة لذات الله التى لا دوام لغيرها .

ودليله فى التيه هى كلمة « لا إله إلا الله » ينفى بها الفعل عن كل فاعل . . فلا فاعل إلا الله .

ثم ينفى الفعل عن نفسه . . فهو أول من يتبرأ من انتصاره إذا انتصر . . فلا يقول . . انتصرت . . بل يقول . . نصرنى الله .

وشعاره كل صباح :

اللهم بك أصبحت وبك أمسيت .

اللهم بك انتشرت .

اللهم بك أصول وبك أجول ولا فخر لى .

وهى كلمات أمام الموحدين وخير الوارثين لكلمة « لا إله إلا الله » محمد عليه الصلاة والسلام .

* * *

وتخطى حدود العقل عند الصوفى المسلم ليس معناه اهدار العقل ، وإنما معناه الاستفادة من العقل إلى آخر مدى قدراته ، والاستماع إلى صوت العقل حتى يقول كل ما عنده حتى يبلغ حافة المحال ، وحينئذ يستلهم الصوفى بصيرته ووجدانه ليكمل الطريق . . فلا تناقض بين العقل والبصيرة ، كما أنه لا تناقض بين الشريعة والحقيقة . . وإنما شأن العقل كمصباح يلقى بنوره إلى مدى معين ، ثم تبدأ منطقة من الظلام لا دليل فيها إلا نور البصيرة وهدى القلب .

كذلك تخطى الدنيا عند المسلم ليس معناه طلب الفقر وافتراش

الرصيف ولبس الخرق . . وإنما تخطى الدنيا هى ألا تضع نفسك فى
خدمة أموالك ، وإنما تجعل أموالك فى خدمتك وفى خدمة الآخرين .
وهى أن تملك أرضك وتسخرها للخير العام لا أن تملكك أرضك
وتسخرك فى تكثيرها . . وهى أن تملك زمام شهوتك وتخضعها ، لا أن
تكون عبدها وخادمها . . وبذلك تتخطى الإغراء فتجعله خلفك وتحت
إمرتك وفى قبضتك . . وتكون سيد الدنيا لا عبدها .

أما الصوفية التى تنادى بإهدار العقل وتمجد الفقر والشحاذة
ولبس الخرق على أنها الطريق إلى الله فهى انحراف بالدين وبالطريق

ونبينا عليه الصلاة والسلام يقول :

« إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده »

« إن الله لا يحب البؤس ولا التباؤس »

والدين يمجد النظافة ويدعو إلى العمل ونبينا يقول عن الفقر
لو كان الفقر رجلاً لقتلته .

والمال فى القرآن مرادف للخير والنعمة . . حينما يوظف فى مكانه
للنفع العام بالإضافة إلى انتفاع صاحبه . وهو نقمة حينما يكتنز بلا وظيفة
سوى الشح والبخل .

والمسلم لا يرفض الدنيا . . وإنما يجعل منها مطية إلى الآخرة ،
ومزرعة للأعمال النافعة تلحق به بعد موته .

ومفهوم الزهد عند المسلم هو رفض الذل للمال لا رفض المال
أجراً كريماً على عمل أو جزاءً عدلاً على جهد . .

الزهد هو الضن بالحياة أن تضاع فى اجتلاب الترف الفارغ .

والزاهد يرضى بالكفاف ليكرس كل وقته لبلوغ أشرف المعارف . . معرفة الله . .

وكل همه وكل فكره وكل شاغله أن يعرفه . . هو .

والزاهد الموحد لا يقول . . أنا . . ولا يقول . . أنت . . ولا يقول . . هم . . ولا يقول . . نحن .

بل يقول . . هو .

لا يرى إلا هو .

ولا يقصد ولا هو .

لا إله إلا هو .

لا يخشى إلا هو ، ولا يتقى إلا هو . . ولا يرى فعلا إلا يرده إليه هو . . ولا يرى ظاهراً ولا باطناً إلا هو .

فإذا أكل فهو يأكل من يده هو .

وإذا شرب فهو يشرب من كفه هو .

وإذا تلقى الرزق فمنه هو .

وإذا تلقى الحرمان فبتقديره هو .

وإذا قضى عليه بالشقاء فبقضائه هو . . « قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِنْدِ اللهِ » .

فإذا صبر فهو يصبر بالله على الله .

وإذا هرب فانما يهرب من الله إلى الله .

وإذا استنجد فإنما يستنجد بالله على قضاء الله .

وإذا استعاذ فإنما يستعيذ بالله من الله . . يستعيذ به من بلائه . . وما الشيطان فى النهاية إلا ابتلاء الله لعباده . .وما الكون إلا مظاهر

أسماء الله وتجليات صفاته وأفعاله .
فهو لا يرى فى أى شىء إلا الله وفعل الله . . وهذا مطلق التوحيد .
وهذا غاية ماتقوله الأسماء لقلب المسلم .
أن تقوده إلى مطلق التوحيد .

الله فى العبادات منذ فجر التاريخ

نزلت عقيدة التوحيد كاملة على آدم وعلمه ربه الأسماء كلها منذ الخلق الأول .. ولهذا لا يصح القول بتطور الأديان من ناحية تنزلها الربانى لأنها لأنها وحى منزه لا يحتمل النقص وعلم إلهى نزل كاملا من بدايته .

والذين يتكلمون عن تطور الأديان يقصدون بذلك شيئاً آخر هو معرفة الله اجتهاداً وبالعقل الذى يخطئ ويصيب .. ومثل تلك المعرفة كان لها بالفعل تاريخ وتطور .. وهى غير المعرفة الأخرى الثابتة التى جاء بها الأنبياء .. ولقد نزل الوحى بين فترة وأخرى لإصلاح ما أفسده العقل وما أدخلته الأهواء على تلك المعارف .

ومنذ فجر التاريخ ، وقبل أن يعرف الإنسان كيف يطهو طعامه ، وكيف يبنى لنفسه بيتاً ، أحس أنه لا بد أن يعبد شيئاً ، ولا بد له أن يبنى لهذا المعبود بيتاً .

كانت العبادة ضرورة أولى مثل ضرورة الحصول على الطعام والحصول على المأوى .

أدرك الإنسان البدائى بوجدانه أن روحه فى حاجة إلى عقيدة تأوى إليها .

كانت روحه ترتجف جوعاً إلى إيمان مثل جسده الذى يرتجف جوعاً

إلى اللقمة والأمان .

وكما أنه لم يستطع أن يعرف ما تخفيه الأرض حوله من أسرار وطاقات كالكهرباء والبخار من أول خطوة ، كذلك لم يستطع أن يعرف حقيقة ذلك الإله المعبود اجتهاداً وبالعقل من أول وهلة وإنما اكتشفه عبر رحلة طويلة من التجربة والخطأ تماماً كما حدث فى اكتشافه مكنونات الطبيعة .

فكما ظن فى البداية أن الشمس تدور وأن الأرض ثابتة . . وكما ظن أن البرق عفريت . . كذلك ظن أن أباه الميت الذى يظهر له فى الحلم هو الله . . فعبَده وذبح له القرابين واتخذ من قبره محراباً ومزاراً .

وتطورت عبادة الأسلاف لتصبح عبادة ثابتة .

وأصبح لكل قبيلة جد قديم تجعل منه إلهها ورمزها المعبود .

ثم بدأ الإنسان البدائى يتصور أن روح هذا الجد يمكن أن تحل فى حيوان أو شجرة . . فانتقل إلى عبادة الحيوانات والأشجار . . وأصبح لكل قبيلة حيوانها الخاص الذى تعبده (الطوطم) . . وهو مرة طائر ومرة ثعلب ومرة أسد ومرة عجل أبيس ومرة بقرة ومرة شجرة تين عتيقة .

وكانت هذه النقلة إلى إله متجسد يلمس باليد أسهل على عقل البدائى من عبادة روح مجردة بلا شكل وبلا جسم .

والذين احتفظوا بعبادة الأسلاف والأجداد صنعوا لهؤلاء الأجداد تماثيل وأصناماً ترمز إليهم مثل اللات والعُزَّى وهُبل حتى تكون لمعبوداتهم

أجسام تُلمس ومواقع تُزار .

والبعض اتجه بعبادته إلى حيث يتصور مواقع القوة فى الطبيعة فعبَد الرياح والزوابع والرعد والبحر والكواكب والنجوم والنار .

وهكذا تعددت الأرباب بقدر تعدد حاجات الإنسان الهمجى ومخاوفه .. فهو يعبد ربًّا للأمطار وربًّا للحرب وربًّا للتناسل وربًّا للخصب وربًّا للبحر وربًّا للرياح .

ثم تلخصت هذه الكثرة من الأرباب فى إلهين اثنين .. إله للخير وإله للشر .. مثل فشنو وسيفا عند الهنود .. وهرمز وأهرمن عند الفرس .

ثم ظهرت فكرة الإله الواحد ممثلة فى الشمس ، أكبر ما ترى العين فى السماء .. الإله « رع » عند الفراعنة .

وفى اليونان « زيوس » كبير آلهة الأولمب الذى جعل من باقى الآلهة أرباباً صغاراً يعملون فى خدمته ويدينون له بالولاء والطاعة .

وكانت أول خطوة نحو توحيد حقيقى لرب مجرد تمام التجريد ، هى الخطوة التى حققها أخناتون فيلسوف الفراعنة بحق .

وقد ورث أخناتون عبادة الشمس عن أجداده ، وما لبث أن ثار على تلك العبادة الشمسية مقرراً أن الشمس ما هى إلا مخلوقة هى الأخرى ، وأن الخالق الجدير بالعبادة هو القوة التى أبدعتها .. وجعل من قرص الشمس مجرد رمز لتلك القوة الواحدة المستترة .. آتون .. الواحد القادر على كل شىء .

ويقول هيرودوت إن المصريين كانوا أول الموحدين فى العالم ، وإن بقية العالم أخذ الدين عنهم .. فأخذت الهند شعائرها .. واليونان

عقائدها من مصر .

وكانت بداية هذا التوحيد فى عصر أمنحوتب الثالث فى تلك الترنيمة المحفورة على لوحة بالمتحف البريطانى . . . وهى فى صورة ابتهال ومناجاة للإله :

أيها الصانع الذى صورت نفسك بنفسك وصنعت أعضاءك بيديك .

أيها الخالق الذى لم يخلقك أحد .

الوحيد المنقطع القرين فى صفاتك .

والراعى ذو القوة والبأس .

والصانع الخالد فى آثاره التى لا يحيط بها حصر .

ويصل هذا التوحيد إلى ذروة فى النقاء والتجريد على يد أخناتون . . فنقرأ فى أنشودته الخالدة لآتون هذه السطور الملهمة :

يا آتون الحى يا بدء الحياة .

إنك بعيد متعال .

ولكنك تشرق على وجوه الناس .

إنك تمنح الحياة للجنين فى بطن أمه .

وتعنى به طفلاً .

وتسكن روعه فلا يبكى .

وتفتح فمه وتعلمه الكلام .

وتدبر له ما يحتاج إليه فى حياته .

وتعلم الفرخ كيف يثقب بيضته ويخرج .

وما أكثر مخلوقاتك .
يا واحد يا أحد ولا شبيه لك .
لقد خلقت الأرض حسبما تهوى .
خلقتها وحدك ولا شريك لك .
وخلقت ما عليها من إنسان وحيوان .
ودبرت لكل مخلوق حاجاته .
وقدرت له أيامه المعدودة .
وجعلت الناس أمماً وقبائل ولغات متعددة .
وجعلت لهم الشتاء ليتعرفوا على بردك .
والصيف ليذوقوا حرارتك .
وصورتهم فى بطون أمهاتهم بالصور التى تشاء .
وأنزلت لهم الماء من السماء .
ليجرى أمواجاً تتدافع وتروى حقولهم .
ما أعظم تدبيرك يا سيد الأبدية .
إنك فى قلبي .
وليس هناك من يعرفك .
غير أبنك الذى ولد من صلبك .
ملك مصر العليا والسفلى .
الذى يحيا فى الحق .
سيد الأرضين أخناتون .
وقد كانوا يعلمون أطفالهم فى مصر أن الإنسان خلق من طين ،

وأن الإله هو الذى سوّاه . . . كما نقرأ أنهم كانوا يحرّمون لحم الخنزير .

وفى كتاب الوصايا نعثر على تعاليم أخلاقية رفيعة نقتبس منها هذه السطور :

* احذر من الاقتراب من النساء فى أى مكان تدخله ، فقد انحرف ألف رجل عن جادة الصواب بسبب ذلك . . إنها لحظة قصيرة كالحلم والندم يتبعها .

* لقد سمعت بأنك تجرى وراء ملذاتك وتذهب من شارع إلى شارع تفوح رائحة الخمر من فمك . . إن الخمر تنفر الناس منك ، وتودى بك إلى الهلاك ، وتجعلك كدفة مكسورة فى سفينة لا تفيد فى التوجيه إلى يمين أو يسار .

* لا يداخلك الغرور بسبب علمك ولا تختال وتنفخ أوداجك لأنك عالم ولا تحتقر الناس . . فقد تنفعك مشورة من رجل جاهل . . وما من أحد قد بلغ الغاية من العلم بحيث يستغنى عن غيره .

* هدئ من روع الباكى ، ولا تظلم الأرملة ، ولا تحرم إنساناً من ثروة أبيه .

* لا تقتل رجلاً إذا كنت تعرف جميل مزاياه .

* لا تقل « ليست لى خطيئة » وتشغل نفسك بالتفكير فى خطايا الناس . . فالله وحده هو المختص بالحكم فى خطايا الناس وهو الذى ختم على أقدارهم بأصبعه .

* لا ترقد خائفاً مما يأتى به الغد فالله يحقق دائماً ما يريد .

* لا تتخذ الرجل سريع الغضب لك صاحباً .

* ضاعف الخبز الذى تعطيه لأمك واحملها كما حملتك . لقد حملتك تسعة شهور فى بطنها وظلت مغلولة بك وظل ثديها فى فمك مدى ثلاث سنوات . . وبالرغم من أن قاذوراتك شيء تتقزز منه النفس فإن قلبها لم يتقزز ولم تقل . . ماذا أفعل بتلك القاذورات .

* لا تميز بين شخص ذى حيثية وشخص فقير بل عامل كل إنسان بحسب عمل يديه .

* إذا جلست على الأكل مع أشخاص كثيرين فلا تقبل كثيراً على الطعام حتى ولو كنت تشتهيه فإنه من المخجل أن يكون الإنسان شرها .

* إن كأساً واحدة من الماء تروى الظمأ ولا فائدة من الإفراط فى الشراب فلن يقوى هذا قلبك .

كان هذا حال مصر . . ذروة فى التوحيد والتجريد . . وكمال فى تصور الألوهية . وسمو فى المنهج الأخلاقى والسلوك الفردى والاجتماعى بينما العالم حولها غارق فى عبادة الأسلاف والأجداد والطواطم والأصنام والأرباب الثنائية .

* * *

ثم ظهر زرادشت فى فارس (٦٦٠ سنة قبل الميلاد) ليجد الديانة الفارسية موزعة بين عبادة « هرمز » إله الخير « وأهرمن » إله الشر فأدخل التوحيد لأول مرة فى الفكر الدينى ، وقصر العبادة على رب واحد . ونزل بإله الشر إلى مرتبة المخلوق الضعيف الذى ينازع الله سلطانه ، دون أن تكون له غلبة أوشأن .

والله عند زرادشت موصوف بأكمل الصفات . . فهو الكريم

الشافى من الأمراض ، المنقذ من البلايا والكروب ، الخالق الجواد بالنعم والخيرات .

وهو قد خلق الدنيا على ست مراحل . . السماء ثم الماء ثم الأرض ثم النبات ثم الحيوان ثم الإنسان .

والموتى يبعثون ويحاسبون . . وتوزن أعمالهم . . الأخيار يرفعون إلى السماء والأشرار يقذفون إلى الهاوية . . ومن تتعادل حسناتهم وسيئاتهم لا يعذبون ولا ينعمون وإنما يقضون حياتهم فى انتظار قيام الساعة حينما يؤخذ الكل ويقذفون إلى النار المقدسة ليطهروا ثم يرفعوا جميعاً إلى أعتاب الإله الرحيم الغفار .

والنار تقدس عند زرادشت باعتبارها أطهر المخلوقات لا باعتبارها إلهاً يعبد .

والروح تخلق لكل إنسان قبل أن يخلق جسده .

وقد كان زرادشت هو نبى الفرس بحق ، كما كان أخناتون هو فيلسوف الفراعنة ، وكان محطم الأصنام والأوثان بالنسبة للديانة الفارسية ورافع راية التوحيد بين ربوعها .

وبعد مائة سنة من وفاة زرادشت يظهر بوذا فى الهند ليجد الهند موزعة بين عبادة إله الخير « فشنو » وإله الشر « سيفا » هذا عدا أسره من الأرباب الصغار يتداولون الحكم . . فيرفض فكرة تعدد الأرباب كما يرفض الرب الواحد الممثل فى ذات إلهية . . ويقول « بالمطلق » أو « الكل » الذى لا يَبعث من موت ولا يُحاسب ولا يعاقب . . وإنما تتم المخلوقات دورتها متناسخة من صورة إلى صورة حتى تبلغ ذروة

تطورها فى الإنسان الكامل « البوذا » ثم بعد ذلك تفنى فى « المطلق » فى « الكل » وهذا الفناء فى المطلق تسميه البوذية « بالنيرفانا » وتصفه بأنه ذروة السعادة لأنه التحرر من كل القوالب والأشكال ، والخروج من حياة القيد إلى حياة الإطلاق . . وإذا اكتمل الإنسان بهذا المعنى وأصبح « بوذا » فإنه لا يعود بعد موته إلى الأرض أو السماء فى أى صورة أو جسد ، ولا يتناسخ فى أى شكل من أشكال المخلوقات السفلية أو العلوية ، وإنما يتخلص من لعنة التناسخ إلى الأبد .

وبلوغ هذه الرتبة من الكمال فى نظر بوذا لا يكون إلا بالتخلص من أسر الشهوات والرغبات ، ومن أهواء النفس ومطالبها ، وذلك بإخضاعها لناموس العقل والحكمة والاعتدال .

وكما أنكرت البوذية الذات الإلهية ، كذلك وقعت فى التناقض بين قولها بالتناسخ وبين ما تدعيه من إنكار ذات الإنسان وروحه . . ولم تستطع أن تفسر كيف يتناسخ الإنسان فى عدة شخوص وصور ، ويعود إلى الميلاد مرات ومرات . .

وما الذى يبقى منه كل مرة ليتناسخ به إذا لم تكن له ذات أو روح .

ومن الذى يقضى عليه بلعنة التناسخ والعودة إلى الميلاد إذا لم تكن ذاتاً إلهية تحاسب وتعاقب .

ويقول البوديون إنهم استبدلوا فكرة الذات الإلهية . بفكرة القانون « الكارما » . فالإنسان يولد من جديد بحكم قانون صارم هو التكفير عن ذنوبه « فكل ذنب يترك أثراً وكل أثر يدعو إلى كفارة »

ولم يقل لنا البوذا من الذى وضع هذا القانون الصارم وألزم به المخلوقات إن لم يكن خالقاً له ذات إلهية .

وكان واضحاً أن بوذا فى ديانته يريد أن يتجنب الخوض فى مسائل الغيب وما وراء الطبيعة ويريد أن يبتكر ديانة بدون « ميتافيزيقا » فاستبدل فكرة الذات الإلهية بفكرة « الكل المطلق » الذى تفنى فيه الأجزاء . ولم يقل لنا كيف يتوحد هذا الكل المطلق بدون ذات تضم شتاته .

ويدافع المدافعون عن إنكار بوذا للذات الإلهية بأن فكرة الذات الإلهية لا تصدر إلا عن إنسان يتصور أن الله ذات مثله . . والله منزه عن هذا التشبيه .

وينسى هؤلاء المدافعون أن « المطلق » الذى لا يدرى بنفسه والذى لا يعى وجوده هو أقل كمالاً وأحط رتبة من الذات المطلقة التى تعى وجودها .

وأن الوجود الذى لا يشعر بأنه موجود أقل وأدنى فى المرتبة الوجودية من الوجود الذى يشعر بكيانه ووجوده .

ومثل هذا الإله المغمي عليه الذى يسمونه « المطلق » لا يصلح بأى حال لتفسير ما يحدث فى الكون من نظام وانضباط وحكمة .

ثم كيف يخلق لنا « المطلق » بصراً ثم لا يكون هو ذاته بصيراً وكيف يخلق لنا السمع ولا يكون هو ذاته سميعاً ، وكيف يخلق فينا الوعى ويكون هو بذاته بلا وعى .

« والكل المطلق » الذى تصوره بوذا هو مجرد معنى خواء من كل الصفات .

ولم يتقدم بوذا بإلهامه الدينى خطوة على أخناتون أو زرادشت وإنما تأخر عنهما بكثير .

ولا نعرف زمناً محدداً لظهور النبى إبراهيم ، ولم يحفظ لنا التاريخ شيئاً من صحف إبراهيم التى ذكرها القرآن .

وما بقى لنا من تعاليمه أنه كان إمام الموحدين بين العبرانيين ، وأنه نبذ عبادة الشمس والقمر ، ونبذ الأصنام وحطمها ودعا إلى إله واحد هو خالق الشمس والقمر وخالق كل شىء والمنفرد بالفعل والتقدير الذى يبعث بعد موت ويعاقب على الخطايا ويثيب على الحسنات .

« ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ . وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ وَٱلَّذِى أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِى خَطِيئَتِى يوم الدين » .

(الشعراء)

ولكن العبرانيين انتكس حالهم إلى وثنية بدائية بعد موت إبراهيم ، وجاء موسى على بنى إسرائيل ليجدهم عاكفين على الأصنام والطواطم وعبادة الحيوان والأشجار كغيرهم من الأمم الهمجية ، فدعاهم إلى عبادة الإله الواحد الذى سماه « يهوا » .

ولا تذكر لنا المخطوطات الإسرائيلية القديمة التى تروى عن هذه الحقبة شيئاً عن صفات هذا الإله الواحد .

ولا تذكر شيئاً عن البعث والآخرة والحساب والعقاب .

وكان الإسرائيليون يتصورون « يهوا » فى صورة بشرية يأكل ويشرب ويفتك بأعدائه . . وكانوا يتصورون الجنة والنار نعيماً وعذاباً دنيوياً وجزاء فورياً ينالونه على أعمالهم قبل الموت .

ولا يأتى ذكر البعث والآخرة والجنة والنار إلا فى آيات متأخرة من التوراة يتأخر تاريخها إلى مائتى سنة قبل ميلاد المسيح .

ولا نقرأ عن الإله المنزه المجرد عن التشبيه والصفات إلا على لسان أنبياء متأخرين مثل أشعيا .

ولم تترسخ تلك الوحدانية إلا بعد تبشير عشرات الأنبياء الذين لقوا حتفهم ذبحاً وتقتيلاً واضطهاداً من بعد موسى . . ولا نجد أمة حفلت بهذا العدد من الأنبياء . . ضاعت دعواتهم صرخة فى واد . . وذبحوا وصلبوا وشردوا تشريداً . . كأمة اليهود .

ويأتى المسيح فى وقته ليرى أقواماً يعيشون فى غلظة حسية مادية ، فيركز دعوته على الحب والعفو والصفح والزهد فى الدنيا .

أحب الرب إلهك من كل قلبك ومن كل نفسك ومن كل فكرك .

أحب قريبك كنفسك .

أحبوا أعداءكم . . باركوا لاعنيكم . . صلوا لأجل الذين يسيئون إليكم . . لكى تكونوا أشبه بأبيكم الذى فى السموات فإنه يشرق بشمسه على الأشرار والصالحين ويفيض برزقه على الأبرار والظالمين .

طوبى للرحماء . .

طوبى للأتقياء . .

طوبى للودعاء . .

طوبى للحزانى . .

طوبى لصانعى السلام لأنهم أبناء الله يدعون .

قد سمعتم أنه قيل للقدماء لا تَزْن . . أما أنا فأقول لكم إن كل من ينظر إلى امرأة ليشتهيها فقد زنى بها فى قلبه .

وسمعتم أنه قيل عين بعين وسن بسن . . أما أنا فأقول لكم لا تقاوموا الشر بل من لطمك على خدك الأيمن فأعطه الأيسر أيضاً .

متى قدمت صدقة فلتقدمها فى الخفاء فلا تعرف شمالك ما فعلت يمينك .

لا يقدر أحد أن يخدم سيدين . . كذلك لا يقدر أحد أن يكون فى خدمة الله وفى خدمة المال معاً .

لا تهتموا بما تأكلون ولا بما تشربون ولا بما تلبسون .

انظروا إلى طيور السماء . . إنها لا تزرع ولا تحصد ولا تجمع فى مخازن . . وأبوكم السماوى يطعمها . . ألستم أنتم أجدر منها .

تأملوا زهور الحقل كيف يلبسها الله أجمل الثياب دون أن تتعب أوتغزل . . وإذا كان الله يفعل هذا بعشب الحقل الذى ينمو اليوم ويطرح غداً إلى التنور . . فما أسهل عليه أن يلبسكم أنتم يا قليلى الايمان .

ليس كل من يقول يا رب يا رب يدخل ملكوت السموات بل من يحقق إرادة الأب الذى فى السموات .

لا تقتنوا ذهباً ولا فضة ولا نحاساً ولا ثوبين ولا حذاءين افعلوا الخير بلا أجر .

مجاناً أخذتم من ربكم . . مجاناً أعطوا .

إني أريد رحمة لا ذبيحة .

الحق أقول لكم إن مرور جمل من ثقب إبرة أيسر من دخول غني إلى ملكوت الله .

ليس ما يدخل الفم ينجس الإنسان بل ما يخرج من الفم هو الذى ينجس .

من أراد أن يخلص نفسه أهلكها ومن أهلك نفسه من أجلى وجدها . . لأنه ماذا ينفع الإنسان لو ربح العالم كله وخسر نفسه . . وأى فداء سوف يعوضه عن خسران نفسه .

من كان عنده من الإيمان قدر حبة خردل وقال للجبل انتقل من مكانك لا نتقل من مكانه .

بهذه الكلمات الصافية المحلقة يخاطب المسيح عليه صلوات الله وسلامه مجتمعاً من المرابين والسفاحين والقتلة قست قلوبهم وغلظت مشاعرهم واشتغل أحبارهم بالربا ونصبوا موائدهم يبيعون ويشترون فى قلب الهيكل .

ويقلب المسيح تلك الموائد ويهتف بهم :

إن بيتى بيت الصلاة يدعى وأنتم جعلتموه مغارة لصوص .

ويجيب على من يدعوه بالمعلم الصالح قائلاً :

لماذا تدعونى صالحاً . . ليس أحد صالحاً إلا واحد هو الله .

وفى مكان آخر يأمر تلاميذه أمراً صريحاً بالتوحيد نافياً عن نفسه أية شبهة فى الألوهية .

لا تدعو لكم أباً على الأرض لأن أباكم واحد هو الذى فى السموات .

« الإصحاح ٢٣ من إنجيل متى »

وفى إنجيل لوقا الإصحاح الرابع يخاطب إبليس قائلاً :

« اذهب يا شيطان إنه مكتوب للرب إلهك تسجد وإياه وحده تعبد » .

رافضاً السجود للشيطان ولو أعطاه ملك الأرض . . ومعلناً سجوده لله وحده .

مرة أخرى نحن أمام موحد عظيم وديانة رفيعة .

* * *

ويتأخر تدوين أقوال السيد المسيح وتعاليمه أكثر من سبعين سنة ، وينشب الخلاف والانقسام حول ما ورد فى الأناجيل عن الأب والابن والروح القدس وحول ما كتب بولس الرسول عن المسيح بأنه « ربنا ومخلصنا » فتظهر مدرسة آريوس الإسكندرى لتقول بأن المسيح بشر اختاره الله نبيًّا وأوحى إليه وأيده بمعجزاته . . وأنه ليس رباً ولا الهاً . . ويظهر « نسطور » فى سورية ليقول بأن للمسيح طبيعة إلهية . . وأن الله حالٌّ فيه . . وتتفرع المذاهب والكنائس والمجامع وتتعدد الآراء . . هل المسيح هو الكلمة أو هو الابن . . وعن من صدر الروح القدس عن الأب أم عن الابن . . فتقرر الكنيسة الشرقية بأن الروح القدس صدر عن الأب وحده وتقرر الكنيسة الغربية بأنه صدر عن الأب والابن معاً .

ويقول الكل بوحدانية الله برغم قولهم بثالوث الأقانيم الأب والابن والروح القدس . . فهم يعتبرونهم ثلاثة فى واحد .

وهو تناقض واضح فهم يجعلون من الله شركة مساهمة من ثلاثة ثم يزعمون مع ذلك أنهم موحدون .

« وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءاً إِنَّ ٱلإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ » .

(١٥ – الزخرف)

فالمسيح عبد من عباد الله والروح القدس عبد من عباد الله ولا يصح أن نجعل من عباد الله جزءاً من الله فنتصور أن الله ثالوث يتكون من الثلاثة.

« لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ » (٧٣ – المائدة)

« وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انْتَهُوا خَيْراً لَكُمْ » . (١٧١ – النساء)

« ما اتَّخَذَ اللهُ مِنْ وَلَدٍ وما كَانَ مَعَهُ إِلَٰه إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يَصِفُونَ »

(٩١ – المؤمنون)

هكذا نزل القرآن ليحسم الخلاف وليبين الأمر .

« وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذى اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً ».

« فَٱعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا ٱللهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ » (١٩ – محمد)

« إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ » (٢٢ – النحل)

وهذا هو القول الفصل . . وهذه هى كلمة التوحيد التى أوحى بها الله إلى جميع رسله .

والمسيح برىء مما كتبه كتاب الأناجيل

ولم يكن كتاب الأناجيل شهود عيان لحياة المسيح وإنما كانوا

رواة كتبوا على السماع ماشاع بين الناس بعد سبعين عاماً من وفاة المسيح .

ومع ذلك فالكل يقول بالإله الواحد ويدعى التوحيد حتى أهل التثليت استعانوا بالجدل ليقولو إن الثلاثة واحد

* * *

والنظرة المتعجلة بعد هذا العرض السريع المسلسل لتاريخ الديانات قد تخرج بنا من التشابه الواضح بين الديانات الهمجية والديانات السماوية إلى أن الدين كله جاء من الخرافة ، وأن هذا التسلسل التاريخى حجة عليه بأنه أساطير ، وأنه أولى بالعاقل أن يرفضه جملة وتفصيلاً .

وهى نتيجة خاطئة . . ومن يقول بها أشبه بمن يطالبنا برفض الطب ومنجزاته لمجرد أنه جاء متسلسلاً من فنون الطب البدائى أمثال الدق والكى والفصد والحجامة والرقى والتعاويذ التى كان يمارسها الطبيب البدائى . . أو يطالبنا برفض الكيمياء لأنها جاءت من البحث الخرافى وراء إكسير الحياة وحجر الفلاسفة . . أو يطالبنا برفض الفلك لأنه جاء من التنجيم والشعوذة .

والواقع أن هذا التشابه والتقارب بين جميع مراحل نشأة الفكر الدينى هو حجة للدين وليس حجة عليه . . وهو دليل قاطع على أن فكرة الله مغروسة فى الفطرة الإنسانية وأنها فكرة ملحة تطارد الإنسان منذ بدأ يشعر ويفكر . . وأن الحاجة إلى الدين حاجة ثابتة منذ بدء الخليقة .

والقرآن يعلمنا بأن الله ألهم الإنسان بحقيقة الوحدانية كاملة منذ البداية وأنه ألقى بعلم الأسماء كلها إلى آدم . . ولكن الإنسان كان

ينسى ويقسو قلبه ويغلظ إحساسه وينتكس إلى الوثنية ويحرف التعاليم كلما تقادم عليه العهد . .

ومعنى هذا أن الدين لم يتطور ولم يتكامل مرحلة بعد مرحلة وإنما نزل التوحيد كاملاً منذ البداية وتكرر التذكير به من نبى إلى نبى

أما ما نشاهده من ظواهر تطور العقيدة فهو من عمل العقل والفكر الحر فى محاولته للتعرف على الله دون معونة الأنبياء . .

ومن طبيعة العقل أنه يخطئ ويصيب وأنه يبدأ حسيًّا ولا يصل إلى التجريد إلا عبر مراحل من الفكر .

ولكن الله لم يترك الأمر لأفكارنا دائما وإنما أبلغنا بالحقيقة من البداية على لسان الأنبياء . . ولكننا كنا نكذب ونعاند ونتمسك بما تقوله عقولنا .

وكان طبيعيًّا ألا يلقى الله بتلك الحقائق الكلية وحياً إلا لأهل البصائر والأنبياء الذين اكتمل وعيهم وتهيؤهم .

ومن هنا تأتى فكرة الإسلام عن الله الواحد الأحد المتعال الذى ليس كمثله شيء لتكون الذروة والخاتمة لذلك التجريد الخالص لله الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد . . الأول والآخر والظاهر والباطن . . الذى يدرك الأبصار ولا تدركه الأبصار . . المتعال على كل ما نتصور من صفات . . عالم الغيب والشهادة . . الذى بيده مقاليد كل شيء . . الأحد . . الصمد . . القيوم . . وتجمع الأسماء الحسنى التسعة والتسعون التى نزلت فى القرآن غاية ما وصلت إليه المعارف الإلهية من تجريد .

* * *

ولذلك نقرأ فى تاريخ الأديان بين الشعوب البدائية تلك الحكاية الطويلة لتطور الفكر الدينى من طفولة العقل البشرى حينما كان العقل طفلاً لا يستطيع أن يؤمن إلا بشيء مادى متجسد يمسكه بيديه إلى أن بلغ غاية نضجة فأصبح يؤمن بالمطلق والمجرد . . بينما نقرأ عن أنبياء نزلوا برسالات سماوية كانوا يمثلون استثناء دائماً من هذه القاعدة . . من نوح إلى إبراهيم إلى إسحاق ويعقوب وإسماعيل ويونس وهود وموسى وعيسى ومحمد عليهم الصلاة والسلام . . كان النبي يأتى ومعه حقيقة واحدة لا تتغير ولا تتطور ولا تتبدل . . إن الله واحد لا إله إلا هو.

كان كل نبي يأتى بتمام التوحيد . يأتى ليذكِّر وينذر.

كان الأمر هنا مختلفاً . . لأننا لم نكن أمام رجل عادى يجتهد فيخطئ ويصيب . . وإنما كنا أمام رجل مؤيد بوحى وملهم من الله لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ولا ينطق عن الهوى . . وإنما كل ما ينطق به هو مراد الله وبعض علمه الذى يلقيه إلى الناس . . ولهذا ظلت الديانات السماوية جسماً واحداً وكلمة واحدة وعقيدة واحدة . . وهى عندنا جميعاً اسمها الإسلام . . مسيحية كانت أو يهودية .

أما ما سوى ذلك من عقائد فهى اجتهاد العقل الذى يخطىء ويصيب وتصور الأهواء التى تختلف باختلاف المصالح .

والقرآن وإن كان قد جاء بالذروة فى المعارف الإلهية إلا أنه قد جاء بالتوحيد ذاته الذى جاء به نوح وإبراهيم وموسى وعيسى وبالعقيدة ذاتها لا إله إلا الله . .

يقول عيسى . . ما جئت لأنقض الناموس بل لأكمله .

فلا تبدل ولا تطور فيما جاء به أنبياء السماء .

وإنما كان للأديان تاريخ وتطور عند الإنسان العادى الذى كافح بعقله وقطع الطريق إلى الله اجتهاداً . . معتمداً على مواهبه الذاتية التى تخطئ وتصيب .

ولذلك نرى مصلحاً دينيًّا عظيماً مثل أخناتون يخطئ فى تصوره لله برغم عبقريته الفذة فيقول فى ختام نشيده مخاطباً الله :

أنك فى قلبى .
وليس هناك من يعرفك .
غير ابنك الذى ولد من صلبك .
ملك مصر العليا والسفلى .
وسيد الأرضين أخناتون .

فهو قد وقع فى الخطأ الشائع بأنه ابن الله الذى من صلبه . . برغم بصيرته الشفافة ووجدانه المحلق .

ونرى مصلحاً دينيًّا عظيماً آخر مثل بوذا يتصور الله وجوداً مطلقاً لا ذات له . .

وهذا شأن العقل دائماً حينما يتخذه الإنسان دليله .

إن غاية ما يقدمه فى طريق البحث عن الله . . محاولات . .

وقد تركت لنا تلك المحاولات تاريخاً وحكاية طويلة لنشأة الفكر الدينى هى ما رويناه .

أما أنبياء السماء فقد أخذوا معارفهم من نبع آخر لا يخطئ وجاءوا بعلمهم وحياً . ولهذا قدموا إلينا الحقيقة الدينية خالصة مكتملة . .

اتفقوا جميعاً برغم تباعد عصورهم . . وكانت كلمتهم . . أنه لا إله إلا الله دائماً وأبداً وأزلاً ومطلقاً . . وأنه لا تبديل ولا تغيير لهذا الأمر .

وبرغم ما عرضنا من فلسفات وجدل ونظريات تظل قضية الدين قضية إحساس بالدرجة الأولى . . قضية « وعى كونى » كما يقول كاتبنا عباس العقاد . . قضية رؤية شمولية ونظرة شمولية تصدم العقل فيؤمن ويشعر بالحقيقة المهيمنة حوله وفوقه وتحته وعن يمينه وعن شماله . . فهو يرى الله فى نظام الكون وجماله . . وفى انسجام نفسه وجمالها وفى الشعور بالقداسة والروعة الذى يلم به كلما سجى عليه الليل وبرقت النجوم فى عليائها .

وهو شعور يجعلنا فى علاقة منسجمة مع الدنيا بينما يمزقنا الإلحاد ويبعثرنا أشلاء ويبتر ما بيننا وبين الدنيا من وشائج . . بل ويمزق نفسنا ذاتها إلى نقائض تصارع بعضها بعضاً بدون جدوى .

ومن أدلة صدق الدين هذا الاضطراب والقلق الذى يعانيه الملحد وما يعتريه من انقباض وعزلة وسوداوية وتمزق بعكس اطمئنان المؤمن وانسيابه مع الحياة فى انسجام ومحبة وثقة بالمستقبل .

ولهذا السبب عينه . . ولأن الشعور الدينى شعور وجدانى قبل أن يكون عقليًّا نرى مقدم الأنبياء يأتى سابقا فى التاريخ على مقدم الفلاسفة الباحثين فى الله .

لأن الأنبياء هم أهل البصيرة .

والفلاسفة هم أهل الفكر . .

ودور الفكر يأتى دائماً فى المحل الثانى فى قضية الدين .

ومع ذلك ولو كنا من أهل الفكر لا من أهل البصيرة وآثرنا أن نناقش قضية الله بالعقل . . فسوف نجد تراثاً من الفكر رافق الإنسان منذ بدأ يفكر وآلافاً من الكتب ومئات من الفلسفات والنظريات وجيشاً من المفكرين . . لا هم لهم ولا شاغل سوى قضية الله وما وراء الطبيعة .

ولا يمكن أن يدور كل هذا الكلام على وهم أوأن يكون لغواً فارغاً يبحث فى لا شيء .

ولا يمكن أن يُجمع الألوف من أهل الدين والفكر على الأنشغال بمسألة واحدة عبر عصور متباعدة ثم يكون إجماعهم ملفقاً مزوراً .

بل الحقيقة الإلهية مغروسة فى الإنسان غرساً منذ مولده .

والضمير بما فيه من خير وحق وجمال وبما فيه من مقاييس مطلقة نتخذ منها معياراً للحكم على الأشياء . . هو أحد الشهود العدول على ما أودعه الله فى الفطرة مما لا يمكن تفسيره بالمادة أوالجزيئات أو الذرات .

والذين يقولون بأن الضمير ما هو إلا تراكم عادات الماضى وأعرافه وتقاليده الاجتماعية عليهم أن يفسروا لنا . كيف استطاع أصحاب الضمير الفذ وأرباب البصائر أن يغيروا المستقبل ويقدموا للإنسانية رؤيا تتقدم عصرها بمئات السنين .

كيف استخرجوا من هذا الضمير الذى يقول المفكرون الماديون إنه أرشيف الماضى وجثته المحنطة كل هذا النور وهذه الرؤى المستقبلية .

ولا تفسير إلا أننا أمام ظاهرة متعالية مصدرها من المتعال فى الأبد . .

وليس من تراكم خزعبلات الماضى وتقاليده .

أننا أمام الله . .

أمام حقيقة الحقائق .

والتماس البراهين على وجود تلك الحقيقة فضول لا مبرر له ، فهى بذاتها البرهان الوحيد على أحقية أى شىء .

الله عند أهل العلم والفكر

كان الله هو الشاغل الأول عند الذين أثبتوه وعند الذين أنكروه وعند الذين شكوا فى وجوده . . وكان موضوع بحث الفلاسفة دائماً بلا استثناء سواء أرادوا أن يستدلوا على الرفض أو على الإيمان ولم يختلف حال الفيلسوف عن حال البدائى إلا فى الوسائل .

كان الفيلسوف يتلمس الطريق بعقله . والبدائى يتلمس الطريق بوجدانه . . ولكن الله كان مطلب الاثنين على الدوام .

كان سقراط يمشى فى أسواق أثينا يجادل الناس على طريقته فى معنى الفضيلة والعدل والجمال والخير موافقا محدثه فيما يذهب إليه فى البداية ليستدرجه بعد ذلك حتى يكتشف خطأه بنفسه ويصل إلى الحقيقة .

وكان سقراط يدعو إلى الاعتقاد بخلود الروح وبأنها لا تفنى بفناء الجسد .

وجاء أفلاطون ليدعو إلى نظريته المعروفة بنظرية « المثل » .

ويؤمن أفلاطون فى هذه النظرية بعقل كلى أزلى أبدى دائم هو عقل الله تستقر فيه الصور الأصلية لكل المخلوقات (المثل) . . وتقوم الملائكة أو أنصاف الأرباب بتنفيذ هذه الصور وتخليقها فى الواقع

بتلبيسها بقوالب مادية تحاكيها . ونظراً لنقص الملائكة تأتى هذه
المخلوقات ناقصة كما نراها فى عالمنا ، ويتفضل الله بكرمه ولطفه
فيمنح هذه المخلوقات الناقصة زمنا تعيش فيه ، وهذا الزمن هو الآخر
محاكاة للأبد الإلهى . . محاكاة ناقصة تلائم تلك المخلوقات الناقصة ،
ولكن عقل الإنسان عن طريق صلته بعقل الله يستطيع أن يكتشف
الأصول الكاملة المجردة لتلك المخلوقات الدنيوية كما هى
فى عقل الله ، ويستطيع أن يعرف المثال الكامل لكل شيء كما يجب
أن يكون .

وبقدر تلك الصلة بين الإنسان والله يكون مصير الإنسان بعد
الموت خلوداً فى عالم المثل فى سعادة أبدية مع العقل الكلى . . أو هبوطا
إلى الدرك الأسفل حيث يتناسخ فى الحيوانات ويعود إلى الأرض فى
صور منحطة إذا أسلم نفسه للشهوات وابتعد عن تأمل ذات الله بما
فيها من مثل عليا .

أما أرسطو فيؤمن بإله أبدى أزلى سرمدى ، واحد لا يقبل التعدد
جوهر فرد لا يقبل التركيب ولا التجزئة وقد وصف هذا الإله الواحد بأنه
المحرك الأول للوجود الذى دفع بالوجود إلى حركة الابتداء ، ومنذ تلك
اللحظة والوجود فى حركة دائبة .

والله عند أرسطو لا يفكر فى الوجود الذى خلقه لأنه أتفه من أن
يفكر فيه .

ولا يفكر الله إلا فى ذاته لأنها أكمل الموجودات .

ولا يسعى الله إلى خلقه بالعناية .. وإنما الخلق هم الذين يسعون إليه

وكل حركة الوجود عبارة عن هذا السعى نحو الله .

إنها حركة الوجود الناقص نحو الوجود الكامل .

لقد بث الله فى مخلوقاته من العقل والشعور ما جعلها فى شوق دائم إليه . . وفى حركة دائبة تلقائية نحوه .

أما ديكارت فيبدأ من الشك فى كل شىء لينتهى إلى اليقين بوجوده هو نفسه . . فما دام هو يشك فمعنى ذلك أن له ذاتًا تشك وأن هذه الذات موجودة يقينا .

أنا أفكر فأنا إذن موجود .

ومن خلال إيمانه بوجود ذاته يصل إلى الإيمان بوجود الله . . فلا يمكن أن تستقر فى الأذهان فكرة الكائن الكامل إلا إذا كان لهذا الكائن الكامل أصل موجود .

والفيلسوف الألمانى « عمانويل كانت » يؤمن بوجود الله ، ولكنه لا يستدل عليه بالبراهين العقلية ، فالعقل فى نظره قاصر عن إدراك الله ، لأنه بطبيعة تكوينه لا يدرك إلا الحدود والعلاقات والكميات والكيفيات ، ومجال عمله هى المسائل الجزئية والحقائق الجزئية ، أما الحقيقة الكلية ومسألة الجوهر والكنه والماهية فهى أمور فوق مستوى قدراته .

وإنما دليل الفيلسوف على وجود الله يأتيه من ضميره . . من رغبته الباطنة فى تحرى الحق والعدل والكمال والخير .

وكما أن الظمأ إلى الماء يدل على وجود الماء .

فالظمأ إلى العدل يدل على وجود العادل .

والظمأ إلى الكمال يدل على وجود الكامل وهو الله ، ولأن العدل لا يتحقق أبدا فى الدنيا ، فلا بد أن تكون هناك حياة أخرى يلقى فيها كل إنسان جزاءه الحق ويوضع موضعه العادل .

أما برجسون فيتصور القوة الإلهية باطنة فى الكون داخلة فيه وليست مستقلة عنه متعالية عليه . . وهو يسميها فى فلسفته القوة الدافعة الخلاقة .

ويتصور هذه القوة الدافعة الباطنة « ذاتا إلهية » تتجلى على أكملها فى إبداع الفنان وفكر المفكر .

وخلود النفس عند برجسون أمر محتمل لا يرفضه العقل .

ولا يتصور دارون . . أن نظريته عن التطور تنفى وجود الخالق وإنما يقول إنها مجرد تفسير لتعدد الأنواع . . وإنها ترد الأنواع كلها إلى أصل واحد هو بذرة الحياة التى خلقها الخالق . . فهو لا يستغنى فى النهاية عن الاعتقاد فى خالق .

والعلم الحديث يصل إلى الله من خلال الميكرسكوب والمبضع والتلسكوب وتأمل قوانين الذرة والفلك . .

فيقول عالم فلكى مثل سير جيمس جينز . . إن القوانين الرياضية والمعادلات التى يتحرك الكون على وفاقها وتنتظم المادة وتتحرك الذرات . . استخرجناها من عقولنا بالحساب والفكر والتأمل . . فلما مددنا النظر من خلال التلسكوبات والمناظير والمراقب الفلكية وجدنا أبعد الأجرام السماوية مما لم نكن نرى أو نعلم . . وجدناه سائرًا وفق هذه القوانين . .

وإنه لأمر بديهى أن نتصور أن هذه القوانين فى عقل كلى شامل مهيمن . . وأن هذا العقل الكلى الشامل أودعها عقلنا كما أودعها فى

كون ليسير على وفاقها . . وأن الكون كله مشروع متقن من تصميم
هندس ومبدع عظيم هو الذى وضع له الفكرة ووضع القوانين .

كما نرى عالماً عظيماً فى الرياضيات مثل أينشتين يقول بوجود
له . . ويرى فى النظام المحكم والانضباط الشامل أثر قوة مهيمنة
منظمة لكل شيء .

ونرى علماء لا يكتفون بالإيمان ، وإنما يزاولون الصلاة مثل سير
وليفر لودج مخترع صمام الراديو .

والذى يذهب إلى ٣٣ ميدان بلجراف مارلبورن – لندن فى المبنى
الخامس فى الجمعية الروحية هناك يجد قاعة خاصة باسم سير أوليفر
ودج أفردت للصلوات والتأمل .

والدكتور الكسيس كارل (جائزة نوبل سنة ١٩١٢) يؤمن
بوجود كائنات عاقلة غير منظورة تملأ الفضاء حولنا ويقول بأن الصلاة
تجعلنا على صلة بتلك العقول الخفية وتجعلنا محلا لعنايتها وإلهامها . .
وكلما ازدادت صلاتنا حرارة كلما رفعتنا إلى حضرة الله ذاته حيث يمكننا
أن نتلقى العون والمدد منه مباشرة .

والعلم الحديث يعترف بحدوده ويعترف بأن هناك مناطق من المعرفة
محرمة عليه . . فهو بكل أدواته ووسائله لا يستطيع أن يستكشف إلا
الجانب الموضوعى من الحقيقة .

كل ما يمكن أن يكون موضوعاً للملاحظة والرصد والحصر والاستقراء
والتجربة يقع فى مجال العلم واختصاصه .

ولكن الذات الفردة بحكم كونها ذاتية لا يمكن أن تكون موضوعاً

للملاحظة . . لا يمكن أن توضع تحت ميكرسكوب ولا أن تقاس بالشبر ولا أن توزن بالجرام .

وكل ما نستطيع أن نعرفه عنها معلومات غير مباشرة عن أثرها في الآخرين وعلى ما يبدو منها فى ظواهر السلوك وغالبًا ما تكون هذه الظواهر السلوكية كاذبة ومفتعلة .

والإنسان إذا اتخذ من ذاته مادة للتأمل فإنها تبرد تحت مبضع التحليل والتشريح وتستحيل إلى جثة وتفقد ذاتيتها وتصبح شيئاً آخر

وإذا استرسل الإنسان فى استقصاء دوافعه وحوافزه الذاتية فإن سوف يصل إلى نقطة تزول فيها الفواصل بين الأسباب والمسببات وتصبح الذات نفسها سببًا ومسببًا فى عين الوقت .

وإذا كان الإنسان يعجز عن معرفة نفسه والإحاطة بها فكيف يدعي معرفة ذوات الآخرين أو ينكر ذات الله .

ووعى الإنسان لنفسه وهى الحقيقة التى نسميها « ذاتا » هى ظاهر مفردة لا تقبل الجمع . . فكل منا يتألم وحده ويموت وحده . . والمكنونات النفسية الخاصة بكل منا لا تقبل الجمع . . لا يستطيع واحد أن يحب للآخر أو يتألم بدلا منه أو يموت فى محله . .

الصدور مغلقة على عواطفها وآلامها وأفراحها .

وليس صحيحاً أن المجتمع هو حاصل جمع أو حاصل طرح هذه المكنونات النفسية لأفراده . . فكل نفس عبارة عن واحد صحيح لا يقبل القسمة ولا يقبل الجمع ولا يقبل الطرح .

ويمكن عمل إحصائية لدخول الأفراد أو ممتلكاتهم أو مدخراتهم

لأنها جميعاً أشياء موضوعية قابلة للحصر والجمع والإضافة . . أما مكنوناتهم النفسية فلا تقبل الجمع لأنها حقائق ذاتية كل منها تقوم بذاتها .

وكل منا حقيقة لا نهائية فى ذاته . . مفرد . . متفرد . . لا يتكرر .

أحد لا يقبل القسمة ولا الوزن ولا القياس .

نسيج وحده .

عالم قائم بقوانينه الذاتية .

خلقه الله على صورته يشبهه فى الواحدية والأحدية والحياة والعلم والسمع والبصر مع الفارق الهائل فى الرتبة بين الخالق والمخلوق .

وإنه لأمر طبيعى أن نتصور أن هذه الذات لا تموت بموت الجسد . . ولا نرى فى الجسد إلا أداتها العابرة وثوبها المؤقت الذى تنتقل به فى عالم الزمان والمكان ثم تخلعه عنها إذا بارحت عالم الزمان والمكان .

وكما وقف العلم الحديث معترفاً بعجزه وحدوده أمام « الذات » فإنه أيضاً قد خفف الكثير من غلوائه وادعائه العصمة أمام حقائق العالم المادى وقوانينه .

لم تعد قوانين الطبيعة اليوم صارمة كما كانت بالأمس بعد أن جاء هيزنبرج بنظريته الخاصة « بعدم التحديد » واستحالة اليقين والحسم فى رصد حركة الذرات والجزيئات المادية .

وكيف أن الإلكترون يروغ من الملاحظة . . إذا حاول الملاحظ أن يحدد موقعه تغيرت سرعته وإذا حاول أن يحدد سرعته تغير موقعه لأن الشعاع الذى سوف يستخدمه الباحث فى رؤيته سوف يقذف بذلك

الإلكترون بعيداً كل مرة .

وحالة هذا الباحث بالنسبة للإلكترون أشبه بحالة الأعمى الذى يمسك بقطعة مكعبة من الثلج محاولا أن يتحسس أبعادها . . . فكلما أدرك أبعادها تغيرت كتلتها ، وكلما حاول معرفة كتلتها تغيرت أبعادها ، لأنها تذوب بمجرد أن يتحسسها فتتغير كل لحظة .

إن لمسته تجعلها فى حالة ذوبان مستمر .

إن أداته فى المعرفة تزيف عليه نتائج المعرفة .

ومن هنا يدخل عنصر « عدم التحديد » .

القوانين العلمية لا تصدق على وجه الحتم ، ولكن على وجه التقريب باعتبارها معدلات إحصائية لمجموعات كبيرة من الذرات والجزيئات المادية فهى ترصد حركة تلك الذرات فى عمومها كجيش متحرك ولكن لا يخلو الأمر من عدة جنود يخرجون عن الصف كل مرة . ولهذا لا تتكرر التجربة الواحدة فتأتى بنفس النتيجة أبدا . . وإنما يظل هناك فارق طفيف جداً لا يخضع للقانون .

وبهذه الروح المتواضعة ترك العلم الحديث مقعد الزهو القديم وعرش التبجح والمكابرة وتنازل عن اليقين مكتفيا بالاحتمال والترجيح والإمكان . . وبذلك فتح الباب للكلمة التى يقولها الدين وأفسح صدره لتأملات الصوفى وتعاليم النبى .

ولم تعد مشاعر الصوفى وإلهاماته مسألة تقابل بالسخرية والإشاحة باليد . . إلا من الجهال ومحدودى الأفق .

وفتح العلم ذراعيه للدين بعد قطيعة مفتعلة استمرت سنين .

الله عند الذين أنكروه

الذين أنكروا الله كانت لهم فى كل زمان حجة .

قالوا إن الدين وهم ،وإن الله فكرة اخترعها الإنسان ليلتمس العزاء فى الدنيا ، وليعلل نفسه بأحلام الخلود بعد الموت وبالجنة وبالحور وبالقصور . . ونسوا أن هناك أديانًا تبشر بالفناء ولا تقول بجنة أو نار . . ولا تعتقد فى روح . . وهى أكثر انتشارًا وأكثر اتباعاً من الأديان السماوية مثل الديانة البوذية ..

وقالوا بأن الدين أفيون يوزعه الأغنياء على الفقراء ، وصكوك بجنة وهمية بعد الموت فى مقابل سرقتهم لحياة الناس . . وهو بذلك سلاح لطبقة على طبقة . . ونسوا أن فكرة الله بدأت فى المجتمع الهمجى البدائى والمشاعى قبل أن يظهر الإقطاع والرأسمالية بما فيهما من صراعات وطبقات .

ولقد خرجت الرأسمالية مهزومة بعد التحول الاجتماعى وانتصار الفكر المادى ، وظل الدين ثابتًا فى معاقله يؤدى دوره برغم المجتمع الجديد الذى بلا طبقات .

واعتمد الفكر المادى فى رفضه للدين على أنه غيبيات ، وأن العقل العلمى لا يصح أن يؤمن بغيبيات . . ومع ذلك تورط الفكر المادى

ذاته فى إقامة فلسفته على الغيبيات والفروض . . فقال بقدم المادة وأنها أزلية لم يخلقها خالق ، وأنها موجودة منذ اللانهاية من الزمان ، وأنها تطورت فى سلسلة من المراحل . . فى البدء ، كانت المادة ثم تطورت إلى الحياة ثم تطورت الحياة إلى ذروتها « الإنسان العاقل » وحدث كل ذلك تلقائيًّا بالقوانين الجدلية الباطنة فى المادة دونما عوامل خارجية من وراء المادة .

فبدءوا من افتراض خاطئ وهو أزلية المادة اعتبارًا من أن تسلسل الزمن فى الماضى إلى آجال سحيقة يمكن أن يوصلنا إلى الأزل أو اللانهاية . . وهو خطأ . . فالزمن كمية محدودة ومهما انضافت كميات محدودة إلى كميات محدودة فالنتيجة لا تكون إلا كمية محدودة . ولا نصل مهما استرسلنا فى الجمع والإضافة إلى اللانهاية . . وبالتالى إلى الأزل . . فالمادة ليست قديمة ولا أزلية .

والكلام على أنه فى مبدأ الكون كانت المادة ولا شيء غير المادة وأن المادة سابقة فى الظهور إطلاقاً . . هو فرض آخر وكلام عن غيب فلم يكن أحد من الفلاسفة الماديين موجوداً فى تلك اللحظة التى هى مبدأ الكون . . وإنما هى شطحة غيبية من تلك الشطحات التى يعيبونها علينا .

ثم الكلام عن تطور المادة تلقائيًّا بالقوانين الجدلية الباطنة فيها هو تعسف آخر ، فلم يحاول واحد منهم أن يسأل نفسه السؤال المنطقى والبسيط . . من الذى وضع تلك القوانين فى المادة . . وكيف يوجد نظام بلا منظم . . وكيف تولد سيمفونية بدون مؤلف يضع لها النوتة ويقود لها الأوركسترا . . ونسوا أن إسقاطهم لقانون السببية من حلقة الحوادث

وتصورهم لخلق بلا خالق هو إسقاط للعلم كله وخروج على الفكر العلمي فى بداهاته الأولى .

أما كلامهم عن المادة باعتبارها الحقيقة الوحيدة الجوهرية وإغفالهم الذات المدركة وأصالتها واعتبارهم أنها نتاج ثانوى لتطور المادة فهو افتراض آخر وتعسف غير علمي ومحاولة مخلة لتبسيط كل شيء فى كلمة واحدة هى المادة .

هو إذن بنيان واه من الفروض والاحتمالات والشطح والتخمين والتبسيط الساذج لحقائق هى بطبيعتها مركبة ومتداخلة ومعقدة ومؤلفة من مئات الأسباب والعوامل . . وبالرغم من أن الفكر المادى يضع يافطة العلم شعاراً لكل ما يقول إلا أنه لا يراعى بداهات هذا العلم وأولياته .

ونسمع من يقول إن الدين هو حسن السير والسلوك ومكارم الاخلاق . وأن هذه الأشياء يهتدى إليها الإنسان الآن بعقله وبالوازع الاجتماعى وبدون حاجة إلى دين . . ويخطئ صاحب هذه الدعوى فهمه للدين . . فالدين ليس هو الأخلاق . . وإنما هو مرتبة أعلى من الأخلاق .

فإذا كانت الأخلاق وظيفتها تحقيق الانتماء إلى الجماعة الإنسانية على أحسن صورة .

فالدين وظيفة أشمل . . وهى تحقيق الانتماء إلى الكون والوجود والله . . على أفضل وجه .

الإنسان عن طريق الدين يكتشف انتسابه الحقيقى والأصل باعتباره صادراً عن الله وإلى الله يعود . . فهو مخلوق لله ومسؤول أمامه . . وكل ما يملك فمن الله وبفضله . . وواجبه لا يكون إلا نحو الله وعمله

يقصد به إلا وجه الله .

أما الإنسان الحسن السير والسلوك بالمعنى الاجتماعى والأخلاقى فإنه لا يشعر إلا بانتسابه المحدود إلى عشيرته الإنسانية . . ودستوره هو مجموعة لوائح الأخلاق التى تجعل هذه العلاقة على أفضل ما تكون . . ولكنها لا تتجاوز به تلك العشيرة المحدودة من الأهل والأصحاب لتخرج به إلى ساحة الوجود ككل .

ونأتى إلى فرويد فنجد أنه ينطلق فى تعليل كل شىء بالحافز الجنسى ليفسر لنا الدين بأنه نوع من التسامى بالغريزة الجنسية . . فحب الطفل الجنسى لأمه وغيرته مع أبيه وكراهيته الدفينة له (عقدة أوديب) تتخذ شكلاً ظاهرياً من التفكير اللاشعورى عن هذه الكراهية بحب مبالغ فيه للاب ثم عبادة للأب ثم عمل تمثال للأب وعبادته (الأصنام) . . ثم فى النهاية الاتجاه بالعاطفة والعبادة نحو أب سماوى مجرد .

وينسى فرويد أن فكرة الله بدأت فى المجتمعات البدائية الهمجية المشاعية وقبل ظهور عوامل الكبح والكبت والتحريم الجنسى الذى يجعل الأم محرمة على الابن والأب محرماً على البنت ، ويذكر لنا التاريخ حتى فى العصور المتقدمة كيف كان الفراعنة يتزوجون بناتهم وكيف كانوا يتزوجون أخواتهم . . فلا معنى لعقدة أوديب فى مثل تلك المجتمعات .

وحتى لو صدقنا فرويد ، فإنه ينبغى بناء على كلامه أن يعبد الرجل أباً سماوياً والمرأة أمًّا سماوية (بناء على عقدة الكترا عند البنت) وهو تقسيم غير وارد .

* * *

ونجيء إلى عقدة العقد فى إنكار المنكرين وهى قضية الشر وهى عندهم حجة الحجج وعمدة البراهين .

يقولون لك كيف تكون الدنيا من صنع خالق كامل حكيم عليم رحيم كريم . . وهى بهذا الحال من الشر والنقص ملطخة بالدم نابا ومخلباً .

والكلام عن الشر قديم قدم التاريخ . . وهناك أكثر من رد :

فأولا : لا يمكن الحكم على رواية بحضور فصل واحد من فصولها . . والابن يبكى حينما يأخذه أبوه ليجرى له جراحة ويعتبر ما يفعله به غاية الشر . . فإذا امتد به العمر أياماً . . رأى أن هذا الشر العارض كان وراءه خير باق يستحق التحمل من أجله . . وبالمثل حياتنا لم تنته بعد وهى بالموت لن يسدل عليها الستار . . وإنما ستكون هناك فصول أخرى . . ولا يمكن الحكم من هذا الفصل العابر الذى نعيشه على مغزى الرواية كلها .

ثانياً : من الواضح أن بناء شخصية الإنسان وخلقه وصلابته وعزمه مرتبط أوثق الارتباط بما يعانى من مشقات . . ولولا المشقة لكان الأمر كما يقول المتنبى :

لولا المشقة ساد الناس كلهم الجود يفقر والإقدام قتال

فلا معنى للصفح بدون الإساءة ولا للرحمة بدون الألم

ولا للعدل بدون الظلم .

ومن البلاء والصبر عليه . . ومن الألم .

واحتماله تنمو أفضل ما فى الإنسان من صفات .

وعندنا المثل القريب فى لعبة مثل الشطرنج فنى إمكان اللاعب أن يسقط ملك الشطرنج بخبطة واحدة من يده متغاضيًا عن قواعد اللعب ليتجنب المشقة . . ولكن أين تكون لذة النصر . . إن اللعبة الجميلة سوف تتحول إلى شيء مضحك سخيف .

ثالثاً : ما يبدو لنا فى النظرة الجزئية عيباً ونقصاً نراه فى النظرة الشاملة وفى المنظور التاريخى نعمة وخيرا . . كما نقترب من لوحة ومن جزء صغير فيها فنلاحظ ما يشبه لطعة قذرة فإذا ابتعدنا رأينا تلك اللطعة مساحة من الظلال تؤدى وظيفة ضرورية فى الجمال الكلى للصورة . . كذلك تبدو الزلازل والبراكين والكوارث الطبيعية فى إطارها الشامل ، ولها وظيفة مفيدة نافعة فى إعادة التوازن بين باطن الأرض الفوار الملتهب المضطرب وبين قشرتها الصلبة الساكنة .

وتعمل الزلازل إلى إعادة الجبال إلى أماكنها بعد الانزلاق الذى تنزلقه كل عدد من السنين . . والجبال كما نعلم هى الثقالات والأوتاد التى تثبت القشرة الأرضية فى أماكنها ولولاها لانفجرت وطارت فى الفضاء بفعل باطن الأرض الذى يغلى كمرجل ويتمدد دافعاً القشرة فى كل اتجاه بضغط هائل .

إنها كوارث تهلك آلافاً فى سبيل بقاء الحياة والإنسانية وامتداد عمر الدنيا إلى أجلها المكتوب فى الزمان . .

والإنسان يموت على أى حال بالزلزال أو بغيره .

رابعاً : إن الشر كان ضريبة الحرية التى منحها الله للإنسان فلا معنى للحرية الممنوحة للإنسان دون أن تكون له حرية الخطأ كما تكون

له حرية الصواب .

ولهذا رافق الخطأ الحرية فى مسيرتها وكان ضريبتها . . وأصبح تاريخ الإنسان هو تاريخ المحاولة والخطأ .

ونتج من الخطأ الشر .

ولم يكن هناك إلا بديل واحد هو أن يولد الإنسان مجبراً على اختيار واحد هو الخير . . ومعنى ذلك أن يخسر حريته وهو أسوأ .

خامساً : أن الشر والخير هما وجهان لعملة واحدة . فالفيضان هو خير من وجه وشر من وجه آخر ، والحروب هى دمار من وجه وهى حياة من وجه . فالحروب هى التناقضات الهائلة التى أدت إلى التراكيب الإنسانية التى وحدت البشرية فى جماعات كبيرة ووصلت القارات ببعضها . . فهى التى كتلت الناس فى أسر ثم عشائر ثم قبائل ثم قوميات ، وفى النهاية ألقت بهم على مائدة عالمية واحدة فى مجلس الأمن يجلس عليها الكل . . ومن الإنفاق الحربى الباذخ والبحوث المركزة فى أوقات الحرب خرج للناس البنسلين ونقل الدم ونقل الأعضاء والطاقة الذرية والصواريخ والنفاثات والغواصات وصناعة الصلب والبارود وأجهزة الرادار .

سادساً : أن الشر لا وجود له بالأصالة بل هو مجرد بطلان الخير وهو بطلان رافق محدودية الإنسان ومحدودية الكائن الحى . . وما كان يمكن أن يخلق الكائن المحدود بلا حدود وبلا عيوب .

والبديل الوحيد . .أن يخلق الإنسان كاملا بلا نقص . . أى يخلق إلها من البداية وهى استحالة . . أن تتعدد الآلهة . . وأى حكمة فى

تعددها ؟ . . ما دام الكامل الواحد فى ذاته يغنى عن غيره . . وكيف يكون الإله الكامل مخلوقاً . . هى استحالة منطقية أخرى أن يكون كاملا ومعتمدًا فى وجوده على غيره .

وطلبنا من الله أن يحقق لنا هذه المستحيلات المنطقية أشبه بطلبنا منه أن يجعل مجموع الواحد والثلاثة صفرًا بدلا من أربعة . . ومعنى ذلك أننا نتصور الله صانع هراء . . وكل هذا من أجل أن يجنبنا المشقة ويهيئ لنا المتعة .

ومتى كانت المتعة قيمة تحسب فى عداد القيم الرفيعة .

ولنا أن نسأل بعد ذلك هؤلاء الذين يريدونها جنة . . هل يستحقون أن تكون لهم جنة . . وماذا فعلوا من أجل ذلك ؟

والكلام فى قضية الشر كثير .

والقضية أزلية .

وكان لا بد من الشر لتكون للفضيلة البشرية وظيفة تؤديها فى مقاومته .

ولكن بعض المنكرين تعجلوا الحكم ، وقفزوا من ظاهرة الشر إلى نتيجة متعجلة باتهام الخالق . . وتصوروا للدنيا خالقاً محدود القدرة قليل الحيلة مقيدا بالظروف والملابسات التى يخلقها . . إلها لا يختلف كثيراً عن شيخ قبيلة محدود المواهب ، ومن هؤلاء جون ستيوارت ميل الإنجليزى .

وآخرون قالوا بأن الله ينبثق من المادة كما انبثقت الحياة نباتاً وحيواناً وإنساناًعلى مراحل كذلك تأتى مرحلة ينبثق فيها الكائن الكامل

الذى هو الله ليكون ذروة التطور وأكمل طبعة من طبعاته .

ولم يقل لنا هؤلاء ماذا ستكون وظيفة هذا الكائن الكامل الذى يأتى بعد أوانه وبعد أن تنتهى الحاجة إليه . . هذا إذا صدقنا بقضية الانبثاق وهى استحالة منطقية بأن يخرج اللامحدود من المحدود .

أما الفلاسفة الوضعيون أمثال أوجست كونت فآثروا الانصراف عن القضية كلها واطراحها وإهمالها انطلاقاً من عجز العقل عن إدراك الحقائق النهائية ، ويأسا من بلوغ ما وراء الطبيعة ، أو كشف كنه الغيب أو الله . . ونصحوا بالاكتفاء بما يعطيه العلم من تقدم ووسائل تكنولوجية لإسعاد الإنسان ، وحسب الإنسان أن يعكف على هذا الجانب الممكن يتقن علومه واختراعاته ويطورها لصالح حياته ، ولا يضيع الوقت فى تأمل الله وأسراره . . . ناسين بذلك أن ما لا يدرك بالعقل والمنطق الجدلى فهناك وسائل أخرى لإدراكه . . وأن الإنسان لم يوهب المنطق وحده ، ولكنه وهب البصيرة الكاشفة والوجدان الملهم .

والصوفى الذى تتفتح بصيرته فيدرك من الحقيقة الإلهية ما يجعله يغيب عن عالم الظواهر ويغيب عن نفسه ويستغنى بقربه من الله عن كل شىء .. مثل هذا الإدراك الرفيع من ذلك الصوفى لا يمكن إنكاره بإشاحة اليد لمجرد أن الملحد عاطل عنه ، فليس من حق الأصم أن ينكر الأصوات ، ولا الأعمى أن ينكر نور الشمس لمجرد أنه لا يراه .

وفى هذا العصر الذى اكتشفنا فيه من صنوف الإشعاع والأمواج مما تضج به السماء حولنا مما كنا لا ندرك أو نحس له أثراً . . فى مثل هذا العصر يصبح إنكار الغيب والمجهول سذاجة عقلية .

فإذا أضفنا إلى ذلك ما اكتشفنا ، فى علم النفس من عجائب اتصال الأفكار والجلاء البصرى واستشعار الخطر قبل وقوعه وعجائب ما يحدث من اتصال فكر المنوم بالوسيط فى التنويم المغنطيسى . . ومن استدلال الطيور المهاجرة على طريقها بدون حواس معروفة .

كل هذا كشف لنا من أسرار العقل ومجهولاته ما أطل بنا على ظلمة الغيب والأسرار الغيبية فأضاءها وأحياها لتعود موضوعاً للإيمان والبحث من جديد .

فهرس

صدر للمؤلف

١ - الله والإنسان
٢ - أكل عيش
٣ - عنبر ٧
٤ - شلة الأنس
٥ - رائحة الدم
٦ - إبليس
٧ - لغز الموت
٨ - لغز الحياة
٩ - الأحلام
١٠- أينشتين والنسبية
١١- فى الحب والحياة
١٢- يوميات نص الليل
١٣- المستحيل
١٤- الأفيون .. (سيناريو)
١٥- العنكبوت
١٦- الخروج من التابوت
١٧- رجل تحت الصفر
١٨- الإسكندر الأكبر
١٩- الزلزال
٢٠- الإنسان والظل
٢١- غوما
٢٢- الشيطان يسكن فى بيتنا
٢٣- الغابة
٢٤- مغامرة فى الصحراء
٢٥- المدينة (أو حكاية مسافر)
٢٦- اعترفوا لى
٢٧- ٥٥ مشكلة حب
٢٨- اعترافات عشاق
٢٩- القرآن محاولة لفهم عصرى
٣٠- رحلتى من الشك إلى الإيمان
٣١- الطريق إلى الكعبة
٣٢- الله
٣٣- التوراة
٣٤- الشيطان يحكم
٣٥- رأيت الله
٣٦- الروح والجسد
٣٧- حوار مع صديقى الملحد
٣٨- الماركسية والإسلام
٣٩- محمد
٤٠- السر الأعظم
٤١- الطوفان
٤٢- الأفيون .. (رواية)
٤٣- الوجود والعدم
٤٤- من أسرار القرآن

٤٥- لماذا رفضت الماركسية
٤٦- نقطة الغليان
٤٧- عصر القرود
٤٨- القرآن كائن حَيّ
٤٩- أكذوبة اليسار الإسلامى
٥٠- نار تحت الرماد
٥١- المسيخ الدجال
٥٢- أناشيد الإثم والبراءة
٥٣- جهنم الصغرى
٥٤- من أمريكا إلى الشاطئ الآخر
٥٥- أيها السادة اخلعوا الأقنعة
٥٦- الإسلام ... ما هو ؟
٥٧- هل هو عصر الجنون ؟
٥٨- وبدأ العد التنازلى
٥٩ - حقيقة البهائية
٦٠- السؤال الحائر
٦١- سقوط اليسار

* مجموعة المؤلفات الكاملة *

قصص مصطفى محمود — صدرت فى بيروت عام ١٩٧٢
روايات مصطفى محمود — صدرت فى بيروت عام ١٩٧٢
مسرحيات مصطفى محمود — صدرت فى بيروت عام ١٩٧٢
رحلات مصطفى محمود — صدرت فى بيروت عام ١٩٧٢

حازت رواية « رجل تحت الصفر » على جائزة الدولة لعام ١٩٧٠

رقم الإيداع	١٩٩٧/٥٩٢٤
الترقيم الدولى 977-02-5420-7	ISBN

١/٩٧/١٦

طبع بمطابع أكتوبر (ج . م . ع .)